حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

شرف الفصحى بين شعراء عشرة

دراسة في أصداء الدعوة المتجددة للعامية

إعداد

الدكتور/ ياسر السيد عبدالعال البنَّا

مدرس الأدب والنقد
فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

العدد الخامس عشر
للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
الجزء الثالث

مقدمة

أحمد الله تعالى على أنه لا إله إلا الله حمدًا كثيرًا طيبًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد ، وأبين من تكلم فأعرب وأجاد ، ورضى الله – تعالى – عن آله وأصحابه الأمجاد .

وبعد .

ترجع فكرة هذا البحث لزمن مضى كان بحثي فيه عن أطروحة لنيل درجة "الماجستير" ، وبالنظر إلى بعض دواوين الشعر الحديث تتبعاً لإحدى الأطروحات أخذ ناظريَّ عدة قصائد : بعنوان : "اللغة العربية" ، وبمطالعة هذه القصائد بدا لى أن موضوعها واحد وهدفها واحد ، وربما مناسبتها واحدة ، فقد كتبها أصحابها دفاعًا عن اللغة الفصحى ، وبيانًا لفضلها في ظل الهجمة الآثمة والدعوة الهدَّامة بتقديم العجمة والعامية عليها .

وقرأت هذه القصائد التي بلغت عشرًا مرة بعد مرة ، فوجدت في نفسي رغبة ذاتية في تحليلها والموازنة بينها قيامًا بدوري في الذود عن لغة القرآن ، غير أني أرجأت هذا العمل لقادم ، وما كنت أظن أنه سيمتد لسنوات ، إلى أن جاء اليوم وتجددت رغبتي في دراسة هذه القصائد العشر – في نصرة اللغة الفصحى – لتبقى نصوصًا حية تَغُزُّنا بحرابها المدببة ، وتوقظ فينا نخوة الإفاقة في وجه أعداء اللغة الفصحى الباقين على مر الزمن ينعبون كالغربان بأصواتهم المستكرهة ، يتخذون من دعاوي التمدن والتجديد ستارًا ، وهم يحاولون النيْل من لغة القرآن ، يريدون اقتلاع الجذور ، وقطع الأشجار وهى واقفة شامخة .

والحق إني توجهت بهذه الرغبة الذاتية في نصرة الفصحى نحو الشعر ، وهذه القصائد العشر ، إيمانًا مني بأن رفعة اللغة العربية وعزتها لن تكون إلا بإبداعها ، فبالإبداع وحده تتجدد دماء اللغة ، وينبع شبابها وربيعها ، ويتجلَّى

رواؤها وجمالها ، والمبدعون وحدهم هم القادرون على أن يجددوها ، ويضيفوا أشرعة جديدة إلى سفينتها ، فتبعث فيها حياة وأَلَقاً وزهاء ، لاسيما وأن أصحاب الدعوة للعامية والعجمة كان من بينهم أيضًا أدباء ، رضوا بأن يكونوا دعاة للهدم ، وخَدَمَاً للشياطين ، مما يجعلني أعتقد بأنه ليس هناك من عدوٍ لنا يمكن أن يصل فيما يبتغيه إلى مثل ما نفعله نحن بأنفسنا .

أما عن منهجي في هذا البحث ، فأعرض للنص : عنوانه وصاحبه ، ثم أتناول مناسبته ، وفكرته الرئيسة وما تنطوي عليه من أفكار جزئية ، أتبعها بدراسة تحليلية ، وأخرى فنية للقصائد العشر .

وقد صدَّرْتُ الدراسة الفنية لكل نص برصد ظواهر أسلوب شاعره ، فمن درس أسلوب الشاعر كان كمن درس كل شيء فيه ، وبطريق الفن أيضًا أعرض لألفاظه وما يضم من صور التعبير ، وكذلك صوره الشعرية وصنيع الخيال ، ثم أُقَفِّي هذه الدراسة بالحديث عن موسيقا النص وبنيته الإيقاعية .

وقد أفردت لكل قصيدة مبحثًا يطول ويقصر حسب عدد أبيات القصيدة وما يكتنفها من ملامح نقدية وفنية ، واعتبرت ذلك أيضًا في ترتيبها ، ثم قفيت القصائد العشر بمبحث للموازنة بينها ، فقد فطر الناس على حب المفاضلة بين الأشياء لاسيما الآثار الأدبية .

والله عز وجل أسأل أن يتقبل هذا البحث نصرة للغة العربية ، ودعوة لأبنائها لوضع الأيدي على الأيدي والقلوب على القلوب لنعيد للغتنا مجدها التليد .

الباحث

تمهيد

بدأت الحملة على اللغة العربية إثر ثلاثة قرون من الحكم التركي ، تدهورت في نهايتها الحياة العامة وانحدرت اللغة العربية إلى الضعف مجهدة بصراعها مع اللغة التركية التي فرضها بنو عثمان لغة رسمية للدواوين والتعليم ، ولم يكن للعربية الفصحى من نصير سوى "الأزهر" في مصر ، وما يكون من معاونة من "الزيتونة" في تونس ، و "جامعة القرويين" في المغرب الأقصى .

وفي الوقت نفسه كان الغرب يتربص بالدولة العثمانية التي سرعان ما سقطت وتقاسم الغرب تركتها ، وقرر إحلال لغاته محل العربية ، ورأى أن العامية المصرية هى سلاحه في القضاء على الفصحى ، ومسخ الشخصية القومية ، ورأى في بعض الداعين للعامية بذرة صالحة يمكن أن يتعهدها حتى تثمر ثمرتها المشئومة .

ولا أعرف قَدَرًا أم اتفاقًا – رغم اختلاف الزمن [١] – اتحدت دعوات كل من " ولهلم سبيتا " المستشرق الألماني مدير دار الكتب المصرية ، والإنجليزي " ولمور " أحد قضاة محكمة الاستئناف في مصر ، و " وليم ولكوكس " مهندس الري في مصر ، فالأول وقف إلى جانب العامية وتوقع لها أن تخلف الفصحى التي رأى مصيرها إلى الموت كما ماتت "اللاتينية" ونشر كتابًا في "قواعد العربية العامية في مصر " ، والثاني : ألَّف كتابًا عمَّا أسماه " لغة القاهرة " ووضع لها قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب ، أما الثالث : فقد دعا لهجر العربية الفصحى وترجم أجزاءً من الإنجيل إلى ما أسماه "اللغة المصرية" وغير هؤلاء الثلاثة كثير من أصحاب الدعوات الآثمة التي رغم ظهور خداعها وجدت لها رواجاً واستطاعت أن تجتذب نفرًا من دعاة التمدن والتجديد والتغريب أمثال "سلامة

١- كان أكثر رواج هذه الدعوة الهدامة في أواخر عام ١٨٨١م .

موسى" [١] ، في كتابه " البلاغة العصرية واللغة العربية ، و"عبد العزيز فهمي" [٢] في دعوته كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، و "يوسف السباعي" [٣] في قصصه بالعامية المصرية .

وكانت الصحافة من أكثر الأدوات الداعمة لهذه الدعوة للعامية المصرية لاسيما صحيفتي "المقتطف" [٤]، و"المقطم"[٥] ، المعروفتين بميولهما السياسية ، غير أن كثيرًا من الصحف نشطت لتنبيه الناس إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا محاربة الإسلام في لغته [٦].

١- سلامة موسى (١٣٠٤ – ١٣٧٨هـ - ١٨٨٧ – ١٩٥٨م) قبطي مصري ، كاتب مضطرب الاتجاه والتفكير ، ولد وتعلم بالزقازيق ، ثم باريس ولندن ، أصدر مجلة "المستقبل" ، ورأس تحرير "الهلال" ، وصنف أكثر من أربعين كتابًا ، وكان كثير التجني على التراث العربي ومناصرًا للكتابة بالحرف اللاتيني. ["الأعلام" لخير الدين الزركلي – جـ٣ – ص ١٠٧ – ط دار العلم للملايين – الخامسة عشر – عام ٢٠٠٢م] .

٢- عبدالعزيز فهمي : (١٢٨٧ – ١٣٧٠هـ - ١٨٧٠ – ١٩٥١م) ولد في كفر مصيلحة بالمنوفية ، وتعلم بالأزهر ثم بمدرسة الحقوق ، واحترف المحاماة ، وهو أحد مؤسسي حزب الوفد ، وتولى العديد من المناصب ، وتوفي بالقاهرة ، [الأعلام ٢٠٨/٧].

٣- يوسف بن محمد محمد عبدالوهاب السباعي (١٩١٧م – ١٩٧٨م) أديب ووزير مصري ، تخرج في الكلية الحربية ، وتدرج في المناصب حتى عين وزيرًا للثقافة وظل في منصبه إلى أن اغتيل في قبرص عام ١٩٧٨م ."http:// ar wikioedia. Org / wiki"

٤- "المقتطف" : مجلة شامية مصرية ، أنشأها "يعقوب صروف" فى الشام ، عام ١٨٧٦م ، ثم نقلت إلى مصر وانتظم صدورها عام ١٨٨٨م .

٥- "المقطم" : جريدة صدرت في ظل الاحتلال البريطاني ، وبدعمه ، وكان أبرز مؤسسيها : فارس نمر باشا ، وأول صدورها في أبريل عام ١٨٨٨م [المرجع السابق].

٦- ينظر : "لغتنا والحياة" – د/ عائشة عبدالرحمن من ص٢٩ إلي ص٣٠ – ط دار المعارف – مصر – ط الثانية ١٩٩٨م .

ولعل خضوع البلاد العربية والإسلامية للحكم الأجنبي كان هو السبب الأقوى في انصراف كثير من أبناء العربية عن استخدام لغتهم في التعليم الخاص والعام فقد أدى الاحتلال إلى ضعف وعي الأمة إلى درجة أنها أصبحت لا تقدر ما يعنيه ضعف لغتها من أثر على وجودها وتوحدها.

أما مزاعم أصحاب الدعوة ضد الفصحى فتتمثل في رؤيتهم الحاقدة أنها قاصرة عن استيعاب قضايا العلم المتجددة ومواليد الحضارة الحديثة لاسيما وأن مخاضها ليس في بلاد العرب ، كما يدَّعون عدم مواءمة رسوم حروف العربية الهجائية لهذه الحياة الحديثة ، مدللين على ذلك بندرة الكتب العلمية المكتوبة باللغة العربية [١].

وربما ساعد على ذلك أيضًا إهمال القيادات العربية للتعليم في أثر الحرب العالمية الثانية مما أدى إلى خلق جيل من أنصاف المتعلمين يعلِّم جيلاً ممن يجهل اللغة العربية ولا يعرف لها قدرها .

وكذلك ما كان من لغة الصحف التي اكتنفها الضعف والركاكة وشيوع الألفاظ الوافدة التي سرت على ألسنة الناس وأقلامهم حتى أصبح النخبة يتفاخرون بإتقانهم للغات الأجنبية ويطعمون بها كلامهم في الدواوين والمنتديات وربما في الأسواق [٢].

وإذا كانت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هي الحقبة الزمنية التي راجت فيها هذه الدعوة فما أشبه الليلة بالبارحة !! ، فمن يستعرض

١- ينظر "اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة" – د/ كارم السيد غنيم – ص٢٥ – مكتبة ابن سينا – مصر – ط ١٩٩٠م.

٢- ينظر "أزمة مصر" مقالات متعلقة بعنوان "هدم اللغة العربية" ، د/ محمد محمد حسين – الشبكة الدولية . www.alukah.net/literature language

حال العربية الفصحى في بلادنا العربية اليوم يجزم بأنها تعيش أزمة حادة تتمثل في عزلتها عما يجري على الألسنة ، فالكثير مما يستخدمه العرب في حياتهم اليومية موضوع بلفظ أجنبي ، ويضاف إلى ذلك الضعف العام الذي يصيب اللغة في الإعلام والتعليم وغيرها من مناحي المجتمع ، وكأننا نحن العرب تترسخ فينا نزعة نحو هدم قيمنا وتدمير ثوابتنا !! .

على أن اللغة الفصحى هي مرآة أحوال أمتنا وصورة تمدنها ورسم مجتمعها، وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب ، وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب ، وما يتمثل في خواطرها من معاني ، وما يقال من هرم وشيخوخة ليس من لغتنا في شئ ، فهى لا تزال في ريعان شبابها، وطور ترعرعها صالحة لأن تجاري أوسع اللغات وأكثرها مادة ، إضافة لما تتمتع به من عذوبة نطقها وموسيقية ألفاظها ، وما أوتيت من جمال التعبير.

أما ما يصيبها من ضيق فوارد من قِبل الأمة وتخلفها عن الحضارة والمدنية ، وعلى ذلك بدا واضحًا أن هذه الدعوات الهدامة والآثمة لا تستهدف فقط اللغة الفصحى ، وإنما ترمي إلى هدم الدين والأخلاق ، لكن الأمل في إنقاذ أجيال من الشباب المسلم يظل كبيرًا مادام القرآن حيًا مقروءاً وما دام الناس يتذوقون حلاوة أسلوبه وجمال عباراته ، فهو سر غناء اللغة العربية ورفعتها والذي تستمد منه عناصر تراثها الباقي .

لقد كان من شرف العربية أن اختارها الله عز وجل لتكون لغة كتاب الرسالة الخاتمة ، لما تملك هذه اللغة من خصوصيات لغوية تجعلها أقدر على تحمل ما ورد في الكتاب من معاني بما هي أهل له ، فلولا أهلية اللغة العربية ما كان اختيارها لتوصيل الخطاب الإلهي للناس على مر الزمان "بلسان عربي مبين"[١].

١- سورة الشعراء آية (١٩٥).

وتأسيسًا علي ذلك لست في حاجة أن ألتمس مسوغًا لدراسة هذه القصائد العشر التي ينطق شعراؤها بنصرة اللغة الفصحى وبيان فضلها والرد على أعدائها ، في ضوء تلك الدعوة الهَّدامة والآثمة بتقديم العامية والعجمة عليها ، بل لست في حاجة أن ألتمس مسوغًا لأضع موضوعها ضمن القضايا الحية لعصرنا ، إذ يظل موضوع اللغة حياً ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ولسان قوميتنا ، واللغة التي تصلنا بتراث أسلافنا وتاريخ أمتنا ، وبها نلتقي ونتعاطى عبر حدود الزمان والمكان .

المبحث الأول

القصيدة الأولى

" عُتْبُ اللغة العربية على أهلها " للشاعر "خليل مطران "

" عُتْبُ اللغة العربية على أهلها [١] " للشاعر "خليل مطران "

١- سمعتُ بأُذن قلبي صوت عتب ... لـه رقراقُ دمعٍ مستهلِّ
٢- تقول لأهلها الفصحى : أعدلٌ ... بربكمُ اغترابي بين أهلي ؟
٣- ألستُ أنا التي بدمى وروحي ... غذت منهم وأنْمت كلَّ طفل؟
٤- أنا العربية المشهود فضلى ... أأغدو اليوم ، والمغمور فضلى؟
٥- إذا ما القوم باللغة استخفُّوا ... فضاعت ، ما مصيرُ القومِ؟ قل لى؟
٦- وما دعوى اتحادٍ فى بلادٍ ... وما دعوى ذمارٍ مُستقل؟
٧- فسادُ القول فيه دليلُ عجزٍ ... فهل معه يكون صلاحُ فعل؟
٨- بنيات الحمى أنتن نسلى ... فإن تنكرننى أتكن نسلى ؟
٩- ويا فتياناه إن أخطأتنى ... مبرَّتُكم ، فإن الثكلَ ثكلى
١٠- وللعلماءِ والأدباء فيما ... نأت غاياتُه مهدت سبلي
١١- إذا ما كان في كلمى صعابٌ ... فلا تأخذ كثيري بالأقل
١٢- وهل لغة قديماً أو حديثاً ... تُعدُّ بوفرة الحسنات مثلى ؟.
١٣- فيا أمَّ اللغات عداك منا ... عقوقُ مساءةٍ وعقوق جهل
١٤- لكِ العودُ الحميد فأنتِ شمس ... ولم يحجب شعاعكِ غيرُ ظلِّ
١٥- دعوت فهب من شتى النواحي ... ميامين أولو حزم ونُبل
١٦- برأى فيك يكفل أن تردى ... مُكرَّمة إلى أسمى محلِّ
١٧- ينور شعرهم في كل واد ... ويزهر نثرهم في كل حقل
١٨- وطه في طليعة من أجابوا ... يهيئ نهضة في المستهلِّ
١٩- بموفوريه : من أدب وفن ... ومذخوريه : من عقل ونقل

١- وردت القصيدة في " المختار من شعر خليل مطران " للدكتور / محمد عناني – ص ٧٤ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

٢٠- يفـيض كمـا يفـيض النيـل خصـباً ويحيـى الحـرث فـي حـزن وسـهل
٢١- ويبعـث فـي شـباب العمـر روحـاً هــو الــروح الــذى يبنــى ويعلــى
٢٢- إذا مــا حــاول الفرســان جلــى وخلــف شــقة دون المصــلى
٢٣- فكيــف بــه اذا مــا شــن حربــاً علــى بــدع الضــلول او المُضِــل ؟

أولاً : غرض القصيدة ومناسبتها :

كتبها الشاعر محاولاً الانتصار للغة العربية وبيان فضلها بعد ذيوع الدعوة العامية واللغات الأخرى على حسابها ، كما حاول الشاعر حث أبناء اللغة ومحبيها على أن يعرفوا فضلها وينتفضوا لنصرتها جزاء ما كانت وعاءً للتعبير عن آدابهم وفنونهم ، كما أن الشاعر يحيِّي بقصيدته الغيورين على اللغة من أبنائها .

ثانياً : أفكار النص :

جاءت القصيدة في خمس وعشرين بيتاً تعرض ثلاثة أفكار رئيسة ، الأولى: صور فيها شاعر القطرين اللغة العربية تعتب على أبنائها وتبث شكواها وتحذر من إهمالها وما يترتب عليه من عواقب تطول جميع أبنائها .

والفكرة الثانية : تعدد فيها اللغة الفصحى محاسنها ومفاخرها وفى مقدمتها القرآن الكريم وهى أداة إعجازه وكذلك الغايات التي بلغها العلماء ، ورغم ذلك تعترف بصعوبة بعض الألفاظ وتقرر أنها نادرة أمام كثرة محاسنها ووفائها بحاجات ذويها .

وفى الفكرة الثالثة : يتخلى الشاعر عن الحديث بلسان اللغة ويقدم لها اعتذاراً عن التقصير في حقها ويعترف بعقوق أبنائها الذين يحثهم على أن يهبّوا

لنصرتها، ثم يخص بالدعوة أحد فرسانها – طه حسين [١]– الذي يعلم منه حبه للغة وإجلالها ، ويقرر أنه أول الملبين لدعوته بما يسطر من إبداع تتجلى فيه رفعة اللغة ونهضتها .

ثالثاً : عرض أبيات القصيدة :

استهل " خليل مطران " قصيدته بصورة خيالية مركبة ، يقول :

١- سمعت بأذن قلبي صوت عتب لـه رقراق دمع مستهل

٢- تقول لأهلها الفصحى : أعدل بربكم اغترابي بين أهلي ؟

فقد شخص قلبه إنساناً وجعل له أذناً تسمع شكاية الفصحى ، وعتابها لأبنائها وذويها ، كما أن الشاعر جعل لصوت عتابها دمع سائل متدفق ينم عن شدة حزن اللغة وألمها الداعي للنحيب ، وقد وضح ما أدته هذه الصورة المركبة من رابط وجداني بين الشاعر ولغته التي لا يسمعها بأذنه وإنما بقلبه لما للقلب بين أعضاء الجسد من مكانة وجدانية روحية .

ولم يقف الشاعر بنا إلى هذا الحد من روعة التصوير وما له من قوة التأثير فراح يشخص – في البيت الثاني – اللغة الفصحى إنساناً يتحدث بلسانها ويبث شكواها وآلامها وتساؤلها مشدوهة عن شعورها الظالم بالغربة بين أهلها ، وقد بدا واضحاً ما في استنطاقها من قوة التأثير .

وقد أفاض الشاعر متحدثاً بلسان اللغة الفصحى يقول مستفهماً :

١- طه بن حسين بن على بن سلامة ، ولد في قرية "الكيلو" مركز مغاغة – المنيا – عام ١٨٨٩ ، كُفَّ بصره وهو صغير ، تعلم في القاهرة حتى نال شهادة "الدكتوراه" من الجامعة المصرية ثم من فرنسا ، وعين أستاذًا بكلية الآداب ثم عميدًا لها ثم وزيرًا للمعارف، ومن أشهر مؤلفاته "الأيام" "وحديث الأربعاء" و "علي هامش السيرة" وتوفي عام ١٩٧٣م . [أعلام الزركلي ٢٣١/٣ – ط/ دار العلم للملايين – التاسعة ١٩٩٠م]

٣- ألست أنا التي بدمى وروحي غذت منهم وأنمت كل طفل؟

٤- أنا العربية المشهود فضلى أأغدو اليوم ، والمغمور فضلى؟

٥- إذا ما القوم باللغة استخفوا فضاعت ، ما مصير القوم؟ قل لى؟

٦- وما دعوى اتحاد فى بلاد وما دعوى ذمار مُستقل؟

٧- فساد القول فيه دليل عجز فهل معه يكون صلاح فعل؟

لا يزال شعور الفصحى بالحزن والألم يدعوها للغرابة ويدفعها للاستفهام : كيف تكون هذه الدعوات ضدها من أبنائها الذين غذتهم بدمها وروحها وأنمت فيهم حبها والانتماء لها ، وحفظ ألفاظها التي عبرت عن حاجاتهم ومكنونات صدورهم ؟ .

وتُذكِّر اللغة بماضيها العريق الذي شهد له العالم وقت أن كان لها أبناء علماء، فهي تربط رفعتها وذيوعها بمكانة أبنائها الذين إذا ضعفوا وهانوا هانت مكانتها وضاعت بين الأمم ، وتنكر أن يضيع كل هذا ويغمر فضلها .

كما إنها تحذر أبناءها وذويها أن الأمة التي تستهين بلغتها وهويتها تهون على الأمم وتُمحَى حضارتها ويُنسَى تاريخها وتقرر أن ذلك نتيجة مؤكدة لهوانها على أبنائها .

وإذا كان الأمر كذلك تواصل اللغة استفهامها تقرر أنه لا أمل في اتحاد أو استقلال للأمة العربية التي تَفَشَّى فيها فساد اللسان ، وتعلن أن فساد القول يظهر عجز أصحابه وعليه فلا يرجى صلاح أفعالهم ، فكيف لمن لا يستطيع تقويم لسانه والمحافظة على لغته أن يستقيم عمله ؟ ، فالشاعر يرى أنَّ ضياع اللغة وفساد اللسان دليل واضح على فساد عمل الإنسان كله .

ولا يزال الشاعر بلسان اللغة يفيض فى بث شكايتها وآلامها ، ويصورها تنادى أبنائها وبناتها:

٨- بنيـــاتُ الحمـــى أنـــتن نســـلى فـــإن تُنكرننـــى أتكـــنَّ نســـلى ؟

٩- ويـــا فتيانَـــهُ إن أخطـــأَتْني مبـــرتُكم ، فـــإنَّ الثكـــل ثكلـــى

١٠- وللعلمـــاءِ والأدبـــاءِ فيمـــا نـــأَتْ غاياتـــه مهَّـــدت سُـــبُلى

لم تنفك عن الفصحى بعد حالة الاندهاش والغرابة التي أصابتها بسبب الدعوات ضدها ، فهي تنادى جميع ذويها الأبناء والبنات منكرة عليهم أن يكونوا من نسلها إن قعدوا عن برها أو تخاذلوا عن نصرتها ، وحينئذ تجتمع لها مع آلام حزنها آلام الثكل لفقد هؤلاء الأبناء .

وتؤكد اللغة على جحود الذين يحاربونها وينكرون فضلها وقد بدا هذا النكران في توجيههم ضدها دون النظر إلى أصلها وارتباطها بالقرآن الكريم ، فهي الأداة التي أبرزت إعجازه ومعانيه السامية ، وكذلك هي الأداة التي أبرزت نتاج الفكر العربي في شتى المناحي .

غير أن الشاعر يعترف ببعض أوجه القصور في اللغة الفصحى ، فيصورها ترتدي ثوب الشجاعة معترفة بصعوبة بعض كلماتها تقول :

١٣- إذا مـا كـان فـى كلمـى صـعاب فـــلا تأخـــذ كثيـــرى بالأقـــل

١٤- وهـــل لغـــة قـــديماً أو حـــديثاً تُعـــدُّ بـــوفرة الحســـنات مثلـــى ؟

ولكن من الظلم أن تنسى كل محاسنها الوفيرة أمام هذه الكلمات القليلة ، فكيف تكون الغلبة للقليل ؟ ، في حين لا توجد لغة تقاربها في وفرة حسناتها .

وبعد أن بثت اللغة الفصحى شكواها وأفاضت تَخلَّى الشاعر عن الحديث بلسانها ، وأبرز ما بلغ به من الحزن والألم لها ، وراح بلسانه ، ولسان كل

محبيها يعتذر لها ، لما قوبلت به من العقوق المر ، عقوق مساءة تتمثل في المطالبة بتركها لصعوبتها ، وهجرها إلى لغة أخرى ، وعقوق جهل أبنائها بما تحمله من فيوضات ونفائس ، يقول :

١٥- فيا أم اللغات عداك منا عقوقُ مساءةٍ وعقوقُ جهل

١٦- لك العوْدُ الحميدِ فأنتِ شمسٌ ولم يحجب شعاعك غير ظلِّ

١٧- دعوتِ فهبَّ من شتى النواحي ميامينٌ أولو حزمٍ ونُبل

١٨- برأى فيك يكفل أن تردى مُكرَّمةً إلى أسمى محلِّ

١٩- ينور شعرهم فى كل واد ويزهر نثرهم فى كل حقل

يبدو أن " خليل مطران " رأى أثراً لدعوته لدى أبنائها فلم يكن حديثه لها مجرد اعتذار وإنما وعداً بالعمل على عودة قوتها وازدهارها ومكانتها السامية التي كانت تتبوأها ، فهي شمس تضئ الكون بتوهجها ، وهذه الدعوة ضدها ليست أكثر من ظل ضئيل سرعان ما يزول .

كما يبدو أن الشاعر ادخر الأبيات الأخيرة من قصيدته للحديث عن هؤلاء النبلاء الميامين من أبناء اللغة الذين استجابوا لدعوته وهَبُّوا لنصرة اللغة الفصحى، وفى مقدمتهم الأدباء الذين ذاع صيتهم وكانت العربية وعاء شعرهم ونثرهم ، لاسيما طه حسين الذي خصه الشاعر بقوله :

٢٠- وطه في طليعةِ من أجابوا يُهيئُ نهضةً في المستهلِّ

٢١- بموفوريْه : من أدبٍ وفن ومذخوريْه : من عقلٍ ونقلِ

٢٢- يفيض كما يفيض النيلُ خصباً ويحيى الحرثَ في حزنٍ وسهلِ

٢٣- ويبعثُ في شباب العمرِ روحاً هو الروحُ الذى يبنى ويعلى

٢٤- إذا ما جاول الفرسانُ جلَّى وخلف شُقَّةً دون المصلِّى

٢٥- فكيف به إذا ما شن حرباً على بدعِ الضلول أو المُضِلِّ ؟

يري الشاعر أن " طه حسين " على رأس الأدباء النبلاء الذين هبوا لنصرة اللغة العربية ، بما أوتى من عقل راجح وعلم واسع وغيرة على اللغة العربية ، وما كان له من فيض أدبي يترك أثره في القلوب كفيض النيل الخصيب حين يترك أثره على الأرض فتحيا به الزروع والثمار ، كما يراه الشاعر فارساً مغواراً من فرسان الكلمة الذين يكون لهم السبق في ميادين اللغة والأدب ، ثم هو يدعوه لمحاربة أعداء اللغة ولا شك أنه منتصر عليهم .

رابعاً : دراسة فنية للقصيدة :

أ- ظواهر الأسلوب : حفل أسلوب الشاعر في القصيدة بعدة لمحات فنية غير أن أربع منها هي التي ألحَّ على ذكرها حتى لتعدّ ظواهر أسلوبية .

١- الاستفهام : يعد أسلوب الاستفهام أكثر ما يأخذ نظر المتلقي لهذه القصيدة، فقد ساق الشاعر استفهامات عديدة ومتنوعة ، منفردة أحياناً ومتوالية أحيانًا أخرى، ورغم قصر القصيدة من حيث عدد الأبيات تكرر أسلوب الاستفهام فيها تسع مرات في تسعة أبيات بينها سبع متوالية ، في قوله :

تقول لأهلها الفصحى : أعدلٌ بربكم اغترابى بين أهلى ؟
ألست أنا التي بدمي وروحي غذت منهم وأنمت كل طفل ؟
أنا العربية المشهود فضلى أأغدو اليوم ، والمغمور فضلى ؟
إذا ما القوم باللغة استخفوا فضاعت، ما مصير القوم ؟ قل لى ؟
وما دعوى اتحاد في بلاد وما دعوى ذمار مُستقل ؟
فساد القول فيه دليل عجز فهل معه يكون صلاح فعل ؟
بنيات الحمى أنتن نسلى فإن تنكرننى أتكن نسلى

ينقل الشاعر في الأبيات أحاسيس اللغة بصوتها عبر هذه الاستفهامات التي تتوالى معبرة عن ضياع المنطق ، واختلال الموازين وعن تناقضات غير مبرره يفرضها واقع غريب ، ولم يكن لأسلوب غير الاستفهام ليعبر عن هذه المشاعر لما يفرضه على القارئ من التفاعل الذهني والوجداني مع الصورة ، ورغم أن الذي يتكرر في الأبيات أسلوب واحد – الاستفهام – إلا أننا نرى له أنواعاً متعددة وكأن الشاعر أراد للغة أن تعرض قسوة إحساسها بالظلم والمعاناة والحيرة من زوايا متعددة .

فقد جاء الاستفهام في البيت الأول إنكارياً ليجسد اختلالات الواقع ، وتقريرياً فى البيت الثاني ليؤكد التناقض بين فضل اللغة على أبنائها ، وسوء مجازاتهم وجحودهم ، وفى البيت الثالث جاء الاستفهام التعجبي المبنى على المفارقة بين ما هو كائن وجاسم على الذات – وهو فضل اللغة المجحود – وبين ما ينبغي أن يكون وبوجوده يعتدل ميزان الواقع ، وهو فضل اللغة المعترف به والمشهود .

وفى البيت الرابع جاء الاستفهام حقيقياً حيث تسأل اللغة سؤالاً تنتظر عليه الإجابة ، وقد بدا في سؤالها سمت التحدي ليقينها بأن الإجابة لا شك في صالحها .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الاستفهام كان أداة رئيسة للوفاء بإحساس الألم والحيرة والشعور بالغربة لدى اللغة الفصحى ، ومن ثم كان أداة رئيسة وظاهرة أسلوبية لدى " خليل مطران " في هذه القصيدة .

٢- المفارقات والصور المتقابلة : كثرت المفارقات وصور التقابل في القصيدة حتى لتعد ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر ، وربما بدا ذلك فيما أسلفت من حديث عن الاستفهام الذي أسهم كثيراً في تحقيق بعض المفارقات وصور التقابل في القصيدة ، ومن أكثر ما يدل لذلك قول " خليل مطران "

فسادُ القولِ فيهِ دليلُ عجزٍ فهل معهُ يكونُ صلاحُ فِعْلِ ؟

بدت المقابلة بين " فساد قول " و " صلاح فعل " ، وهى صورة تحمل في طياتها سخرية من الذين يظنون إمكانية إصلاح المجتمع ونهضته مع فساد لغته، والشاعر هنا بلسان اللغة جعلها تتكئ على منطق وجيه ، فإن من فسدت لغته فيه من الضعف والعجز ما لا يستطيع معه أن يصلح مجتمعه بالعمل لما يتطلبه ذلك من قوة وعزيمة .

ولعل أكثر ما يدل على صور التقابل في القصيدة هو تكرار الطباق بين مفرداتها ، مثل " كثير وقليل " ، " قديم وحديث " ، و" حزن وسهل " ، و" مشهود ومغمور " وغيرها من الألفاظ المتضادة في القصيدة .

٣- **التكرار ودلالاته الفنية :** جرت العادة في الدراسة الفنية ورصد التكرار صورة إيقاعية بعَدِّه أحد أنماط التوقيع الصوتي ، غير أن التكرار في هذه القصيدة كان من الكثرة والتنوع بحيث يُعد ظاهرة أسلوبية ، فقد أورد الشاعر العديد من صور التكرار في القصيدة ، ومنها تكرار كلمة " فَضْلِى " في قوله :

أنـــا العربيـــة المشـــهود فضـــلى أأغـدو اليـوم والمغمـور فضـلى ؟

وكلمة " نسلى " في قوله :

بنيـــات الحمـــى أنـــتن نســـلى فـــإن تنكرننـــى أتكـــن نســـلى ؟

وكلمة " عقوق " في قوله :

فيـــا أم اللغـــات عـــداك منـــا عقـــوق مســـاءة وعقـــوق جهـــل

ومن ذلك أيضاً تكرار أسلوب مثل قوله :

ومـــا دعـــوى اتحـــاد فـــى بـــلاد ومـــا دعـــوى ذمـــار مســـتقلِّ

وقد وضح من هذه الأمثلة كيف ألحَّت بعض الألفاظ على فكر الشاعر ، فبعد أن يذكرها لا تفتأ تنبثق في أفق رؤياه مرة أخرى ، وقد أحسن الشاعر توظيف ألفاظه المكررة لخدمة دلالاته المعنوية والإيقاعية ، فلم تصبح عبئاً ينوء بها كاهل النص وربما زادته بريقاً ورواء .

٤- النداء ودلالاته الفنية :

تكرر أسلوب النداء في القصيدة بما يمكن عدَّه ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر ، ومن أكثر هذه النداءات تعبيراً عن الدلالة ما جاء في قول " خليل مطران " ينادى اللغة الفصحى :

فيـــا أم اللغـــاتِ عـــداك منـــا عقـــوقُ مســـاءةٍ وعقـــوقُ جهـــل

يناديها الشاعر بالأداة " يا " التي للبعيد إشارة لبعد مكانتها ، كما يوحى ذلك برغبة الشاعر في أن يصل نداؤه إلى أبعد آفاق فيفي اللغة حقها من الاعتذار المقدم لها منه ومن ذويها المخلصين عما بدر تجاهها من عقوق بعض أبنائها الداعين ضدها ، إن عن قصد إهانتها وإن عن جهلٍ بقيمتها وكنهها .

ب- ألفاظ القصيدة وصورتها التعبيرية :

ألفاظ القصيدة سهلة واضحة بحيث لا تحتاج في مجملها إلى كتب المعاجم اللغوية لبيان معانيها ، فالشاعر بحسِّه الصادق وذوقه الأدبي قد انتقى أنسب الكلمات تأدية لمعانيه ، فجاءت كل كلمة معبرة عن مدلولها اللغوي تعمق المعنى وتغرسه في الوجدان .

فإذا نظرنا في البيت الأول مثلاً إلى كلمة " رقراق " في وصف الدمع ، وما فيها من معنى العذوبة والجريان فإنها تدل على تدفق دمع اللغة لما تلاقيه في محنتها ، وفى البيت الثامن جفاف كلمة " تنكرننى " تعبيراً عن الجفوة التي تحسها اللغة الفصحى من أبنائها .

وحين يخاطب " خليل مطران " اللغة قائلاً " لك العَوْد الحميد فأنت شمس " فهو بلفظة واحدة كلمة " شمس " استطاع أن يرينا اللغة مشرقة بسَّامة صافية .

وغير ذلك الكثير من الأمثلة التي تدل على الاختيار الموفق من الشاعر لمفردات القصيدة ، غير أن أكثر ما يأخذ النظر في المعجم اللفظي لها

هـو مناسـبة ألفـاظ أبياتهـا الأولـى ووفائهـا بـالغرض المـراد وهـو بـث الشـكوى بلسان اللغة مثل ألفاظ : " قلب – صوت – دمع – أهل – عدل – اغتراب – دَمِـى – روحـي – طفـل – فضـلى – ضـاعت – مصـير – بُنيَّـات – مَبَـرَّة – ثكل " إلـى آخـر الكلمـات التـي اختارهـا الشـاعر معجمـاً لفظيـاً لأبيـات الشـكوى ، وبـالنظر فـي سـائر أبيـات القصـيدة يمكـن القـول بـأن ألفـاظ القصـيدة ومـدلولاتها اللغوية كانت على قدر معانيها ووفَّت بمراد الشاعر وغرضه الشعري .

جـ - **الخيال والصور الشعرية :**

القصـيدة ضـمت صـورة كليـة مركبـة تتمثـل فـي شـكوى اللغـة العربيـة مـن إهمـال أبنائها من الأمـة العربيـة وضـعف لسـانهم ، ومـا لـذلك مـن بـالغ الأثـر عليهـا رغـم أفضالها التي لا تحصى ، ثم استجابة هؤلاء الأبناء وعودتهم إليها ، وقد تشكلت هذه الصورة العامة لدى شاعر القطرين في عدة صور جزئية ترامت في النص استخدم فيها الشاعر ما أراد من أساليب البيان .

ومن أبرز هذه الصور تلك التي بدأ بها قصيدته يقول :

سـمعت بـأذن قلبـى صـوت عتـب لـــــه رقـــــراق دمـــــع مُســـــتهل

تقـول لأهلهـا الفُصـحى : أعـدلٌ بـــربكمُ اغترابـــي بـــينَ أهلـــي ؟

فقد استخدم الشاعر الاستعارة المكنية ليشخص القلب إنسانًا يسمع مما يُبرزُ الاتصال الوثيق والرابطة الوجدانية بين المتحدث – اللغة الفصحى – والمتلقي، لما للقلب من اتصال بالوجدان ، وفى الشطر الثاني : يجسد الشاعر عتاب الفصحى وشكواها له دمعاً سائلاً متدفقاً مما يوحى بتعميق ما تحمله الشكوى من شعور الحزن والألم .

وفـى البيـت الثـاني تتجسـد الفصـحى فـي صـورة امـرأة ضـعيفة شـاكية يؤلمهـا الإحساس بالظلم الذي تلقاه من أبنائها الناطقين بها ، وقد أسهم الاستفهام في

إبراز الشعور بالألم فلا شك أن ظلم ذوى القرابة أشد مرارة وإيلاماً ، على حد معنى قول طرفة في معلقته :

وظلمُ ذوى القربى أشدُّ مضاضة على المرءِ من وقع الحسامِ المهنَّدِ [١]

ولا أقرب إلى اللغة من أبنائها الناطقين بها .

د – البنية الإيقاعية وموسيقا القصيدة :

جاءت القصيدة على بحر " الوافر مفاعلتن " وهو بحر يستطيع أن يستوعب حزن الشاعر وحالة الألم التي يعانيها نتيجة للمحنة التي تتعرض لها اللغة الفصحى ، وذلك لما تتصف به تفعيلات الوافر من الإيقاع الخافت والممتد كامتداد حزن الشاعر .

وقد استخدم الشاعر كثيراً من صور الإيقاع التي أسهمت فى جمال موسيقا القصيدة وأيضاً في إبراز دلالاتها ، وقد تحدثنا عن " التكرار " وفائدته الموسيقية وكيف ألحَّ الشاعر على استخدامه في القصيدة حتى عُدَّ فيها ظاهرة أسلوبية .

ومن صور الإيقاع التي استخدمها شاعر القطرين في القصيدة " التقسيم" وهو ما يكون في البيت من سجع في الحشو يشبه القوافي الداخلية ،[٢] وقد جاء في قوله عن " طه حسين " :

بموفوريه : من أدب وفن ومذخوريه : من عقل ونقل

لم يكتف الشاعر بتقسيم البيت إلي شطرين ، فقسم كل شطر إلى ما يقابله في الآخر مسجوعاً ، فكان ما يشبه القوافي الداخلية ، ولا شك أن هذا التقسيم أحدث

١- "شرح المعلقات السبع" للإمام القاضي أبي عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني – ص٩٧ – ط مكتبة القاهرة ١٩٧٩م .

١- ينظر موسيقا الشعر العربي – د/ حسني عبدالجليل – ج١ ص١٧١ ، ط الهيئة المصرية العامة ١٩٨٩م .

نوعاً من الإيقاع أكسب البيت جمالاً موسيقياً مختلفاً عن سائر الأبيات ، ليكون جزءاً من بنية موسيقية للقصيدة تسهم في الوصول إلى التعبير عن الظلال الوجدانية لدلالاتها المعنوية .

المبحث الثانى

القصيدة الثانية

اللغة العربية والشرق "للرافعى "

" اللغة العربية والشرق [١] " [٢] للرافعى " [٢] :

١- أمٌ يكيد لها من نسلها العقبُ ... ولا نقيصةٌ إلا ماجنى النسبُ

٢- كانت لهم سبباً فى كل مكرمة ... وهم لنكبتها من دهرها سببُ

٣-لا عيب فى العرب العرباء إن نطقوا ... بين الأعاجم إلا أنهم عربُ

٤- والطيرُ تصبح شتَّى كالأنام وما ... عند الغرابِ يُزكَّى البلبل الطَّربُ

٥- أتى عليها طوال الدهر ناصعة ... كطلعةِ الشمس لم تعلق بها الريب

٦- ثم استفاضت دياجٍ في جوانبها ... كالبدر قد طمست من نوره السُّحبُ

٧- ثم استضاءت فقالوا الفجر يعقبه ... صبحٌ فكان ولكن فجرها كذب

٨- ثم اختفت وعلينا الشمس شاهدة ... كأنها لعنةٌ في الجو تلتهب

٩- سلوا الكواكب كم جيل تداولها ... ولم تزل نيرات هذه الشهب

١٠-وسائلوا الناس كم في الأرض من لغة ... قديمةٍ جدَّدَت من زهوها الحقبُ

١١- ونحن في عجب يلهو الزمان بنا ... لم نعتبر ولبئسَ الشيمة العجبُ

١٢-أن الأمور لمن قد بات يطلبها ... فكيف تبقى إذ طلابها ذهبوا

١٣-كان الزمان لنا واللسن جامعة ... فقد غدونا له والأمر ينقلب

١٤-وكان مَن قبلَنا يرجوننا خلفاً ... فاليوم لو نظروا من بعدهم ندبوا

١٥-أنترك الغربَ يلهينا بزخرفه ... ومشرقُ الشمس يبكينا وينتحبُ

١- ديوان مصطفى صادق الرافعي جـ ٢ ص ١٤- الباب الأول – فصل " التعذيب والحكمة" – ط مكتبة الإيمان بالمنصورة دون تاريخ .

٢- مصطفى صادق بن عبد الرازق الرافعي : عالم بالأدب ، وشاعر ، من كبار الكتاب ، أصلة من طرابلس الشام ، وولد في بهتيم ، أصيب بصمم فكان يُكتب له ما يُراد مخاطبته به، نثره من الطراز الأول ، وشعره نقيّ الديباجة على جفاف أكثره ،وتوفى في طنطا عام١٩٣٧م . [أعلام الزركلي ٧ / ٢٣٥]

١٦-وعنـــدنا نهـــرٌ عـــذبٌ لشـــاربه فكيـف نتركـه فـى البحـر ينسـربُ
١٧-وأيّمـــا لغـــةٍ تنســـى امـــرءً لغـــةً فإنَّهـــا لعنـــةٌ مـــن فيـــه تنســـكبُ
١٨-لكم بكى القولُ في ظل القصور على أيـــام كانـــت خيـــام البيـــد والطنـــبُ
١٩-والشـمس تلفحـه والـريح تنفحـه والظـــل يعـــوزه والمـــاء والعشـــب
٢٠-أرى نفـوس الـورى شـتى وقيمتهـا عنـــدي تأثرهـــا لا الغـــر والرتـــب
٢١-ألم تر الحطب استعلى فصار لظىً لمَّـا تـأثر مـن مـسّ اللظـى الحطـبُ
٢٢-فهـل نضـيع مـا أبقـى الزمـان لنـا ونـــنفض الكـــف لا مجـــد ولا حســـب
٢٣-إنـا إذاً سـبةٌ فـى الشـرق فاضـحة والشـــرقُ منـــا وإن كنَّـــا بـــه خـــرب
٢٤-هيهـات ينفعنـا هـذا الصـياحُ فمـا يجـدى الجبـان إذا روَّعنـهُ الصَـخَبُ
٢٥-ومـن يكـن عـاجزاً عـن دفـع نائبـةٍ فقصـــر ذلـــك أن تلقـــاه يحتســـب

أولاً : مناسبة القصيدة :

جهدت حكومة الإنجليز أن تمحو لغة الشعوب التى تحتلها لتحل مكانها اللغة الإنجليزية ، فكانت كالذي يطفئ النار بالماء ، وقد حاولت هذا فى مصر ووجدت رواجـاً لـدعوتها بـين أبنـاء اللغـة الجاحـدين فضـلها ، ولكـن هيهـات ، فقد تصدى لهم الكُتَّاب والشعراء المثقفون حفاظاً على لغتهم وهويتهم ، وكان فى مقدمة هؤلاء النجم المشرق " مصطفى صادق الرافعي " حتى كتبت الصحافة عنه يومـاً : " أنـه المختـار لحراسـة لغـة القرآن ... "[١] وقد صـوَّر محـاولات النيل من اللغة ، والدفع عنها في هذه القصيدة التي تضمنها ديوانه [٢].

١- " في أدب الرافعي " – د / نعمات أحمد فؤاد ص٥٠ – ط الثانية – دار الفكر العربي بالقاهرة – دون تاريخ .

٢- ينظر : ديوان الرافعي ص٢ ص١٦ – شرحه محمد كامل الرافعى – ط مكتبة الإيمان بالمنصورة .

ثانياً : أفكار النص :

جاء النص في سبعة وعشرين بيتاً تدور حول فكرتين :

الأولى : حكى فيها " الرافعي " تاريخ هذه اللغة وفضلها إلى عصرنا هذا ، حيث مضت عليها أزمان إلى ما بعد الإسلام وهى سالمة نقية ، إلى أن جاء عهد الأمويين والعباسيين ، إلى عصرنا ، وهى عهود تقوى فيها اللغة العربية وتضعف حسب قوة أبنائها ، وما يتعرضون له من مؤامرات.

والفكرة الثانية : ناقش فيها الشاعر تقليد الشرقيين للغرب في باطل الأمور وصغائرها مما يسمى " تمدناً " ، وهى الفكرة التي جلبت على الشرق كثيراً من الوبال ، ومن ذلك الدعوة للعامية واللغة الأجنبية ، وهجر لغة القرآن .

ثالثاً : عرض تحليلي للأبيات :

استهل الرافعي قصيدته استهلالاً أخَّاذاً حيث جسَّد اللغة الفصحى أُمَّاً حزينة باكية تدور بها الدوائر وتُحاك لها المصائب وما من جناية فعلتها أو خصلة دنيئة خصتها ، وإنما أدَّت – على خير وجه – رسالتها ولم تقصر في حق أبنائها ، ثم قدَّم الشاعر المفارقة أن بعض هؤلاء الأبناء هم الذين يكيدون للغة ويتربصون بها!، يقول " مصطفى صادق الرافعي " :

أمٌّ يكيدُ لها من نسله العقبُ ولا نقيصة إلا ما جنى النسبُ

كانت لهم سبباً في كل مكرمة وهم لنكبتها من دهرها سببُ

لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عربُ

إذن فالقصور ليس في ذات اللغة العربية ، وإنما في أبنائها والناطقين بها كما أنه يرجع عليهم وبالها ! ، فما كثرت المزالق إلا بعد الاستهانة باللسان العربي وتطلُّع أبناء العربية إلى تقديم اللغات الأجنبية على لغتهم ، في وقت يرمى فيه الغرب إلى طمس هوية كل ما هو عربي وإسلامي .

وبعد هذا الاستهلال بدأ الشاعر تفصيل القضية بالمقارنة بين حالين ، حياة اللغة العربية في ماضيها العبقري ، وحياتها في حاضرها الأليم ، فهو يوضح أن اللغة بين حالين مرت بعدة أطوار بين الضعف والقوة ، ويحكى تاريخ اللغة من يوم كانت على طريقة ليس غيرها من القوة في شئ لاسيما بعد مجئ الإسلام ، وقد عبَّر الشاعر بلفظة " ناصعة" للدهور التي مرت على اللغة وهو وصف للألوان بشدة البياض تأكيداً على سلامتها ونقائها ، إلى أن مضت عليها أزمان دبَّ فيها اللحن وصارت تتأرجح بين القوة والضعف حتى جاء حاضرها المرير يجذبها بقوة نحو الضعف والركود بل ويدعو إلى تقويضها وتقديم لغة الغرب عليها ، وقد استعان الشاعر في سرد هذا التأرجح بعدة صور تشبيهيه ، يقول :

والطيرُ تصدح شتى كالأنام وما ... عند الغراب يُزَكَّى البلبلُ الطَّربُ

أتى عليها طوال الدهر ناصعة ... كطلعةِ الشمسِ لم تعلق بها الريَبُ

ثم استفاضت دياجٌ في جوانبها ... كالبدر قد طَمَسَتْ من نوره السحب

ثم استضاءتْ فقالوا الفجرَ يعقبه ... صبحٌ فكان ولكن فجرها كَذِبُ

ثم اختفت وعلينا الشمسُ شاهدةٌ ... كأنها لعنةٌ في الجو تلتهبُ

يرى الشاعر تفرد اللغة العربية بين اللغات كتفرد البلبل بين الطيور التي تختلف في أصواتها وألوانها وقوتها وضعفها ، ويرى أنَّ ما يضعف فيها يكون عدواً لما يقوى ، مثل ذلك بالبلبل الصداح الذي أبداً لا يمدح صوته الغراب وإن طربت له كل الأسماع ، وهكذا اللغة العربية بين غيرها من اللغات :

كما يرى الشاعر وضوح اللغة وظهورها على مر تاريخها ، كالشمس الصافية حين تشرق دون ما يعكر صفوها أو يحول دون أشعتها ، أو هي كالبدر يتلألأ في ليلة تامة متحرراً من السحب التي تحاول أن تتلقى ضياءه ، ولكن سرعان ما يخفت وضوح الشمس وينطفئ ظهور القمر ، وهكذا حال اللغة وما مرت به من

أطوار إلى أن جاء العصر الحاضر ، ليكون أسوأ عهودها حين ينال منها أعداؤها في وضوح الشمس وبمباركة أبنائها ، ثم يؤكد الشاعر فكرته مذكراً الأمة بتاريخ اللغة وعراقتها ، يقول مخاطباً أبنائها:

سلوا الكواكبَ كم جيل تداولها ... ولم تزل نيرات هذه الشهب
وسائلوا الناس كم في الأرض من لغة ... قديمة جددت من زهوها الحقب
ونحن فى عجب يلهو الزمان بنا ... لم نعتبر ولبئس الشيمةَ العجبُ
إن الأمور لمن قد بات يطلبها ... فكيف تبقى إذا طلابها ذهبوا
كان الزمان لنا واللُّسن جامعة ... فقد غدونا له والأمر ينقلب
وكان مَنْ قبلنا يرجوننا خلفاً ... فاليوم لو نظروا من بعدهم ندبوا

فهو يرى قيمة اللغة ورفعتها يعرفها القاصي والداني حتى الكواكب والنجوم تعرف قيمة اللغة العربية ، بل والكثير من اللغات القديمة التي استطاعت أن تجدد نفسها عبر الأزمان ، ويتعجب الشاعر من أبنائها الذين لا يعرفون قيمتها، ولا يعتبرون بلغات درست وعفا عليها الزمن ، ثم هو يقدم دعوة للأمة للمحافظة على لغتها ويستنهض لذلك همم أبنائها مذكراً إياهم بماضي أجدادهم التليد ، ويدعوهم أن يقفوا في وجه هذا الزمان الغادر الذي يريد النيل من لغتهم بعد أن كانت تاجاً توضع فوق رؤوس الأزمان .

وفى الأبيات التالية يشير الشاعر إلى ظاهرة التقليد والتغريب بدعوى التمدن يقول:

أنترك الغرب يلهينا بزخرفهِ ... ومشرق الشمس يبكينا وينتحبُ
وعندنا نهر عذب لشاربه ... فكيف نتركه في البحر ينسرب
وأيُّما لغة تنسى إمرءً لغةً ... فإنها لعنة من فيه تنسكب

لكم بكى القول في ظل القصور على أيــام كانــت خيــام البيــد والطنــبُ
والشــمس تلفحــه والــريح تنفحــه والظــل يعــوزه والمــاء والعشــب
أرى نفـوس الـورى شـتى وقيمتهـا عنــدي تأثرهــا لا العــز والرتــب
ألم تر الحطب استعلى فصار لظىً لمَّـا تـأثر مـن مـسّ اللظـى الحطـبُ

غير خفيٍّ أن الرافعي لا يعنى بزخرف الغرب كل ما يصلنا منه ، وإنما يعنى باطل الأمور وصغائرها تلك التي يتشدق بها أهل الشرق ويسمونها " تمدناً " ، ويتعجب الشاعر من أهل الشرق وعندهم اللغة العربية نابضة حية ويرى تطلعهم إلى لغة الغرب كمن يملكون نهراً عذباً ويتطلعون إلى البحر ليروى ظمأهم.

أما اللغة البديلة فيشترط الشاعر ألا تنسى المرء لغته الأصيلة ، وإلا فهي لعنة تجرى على الألسنة ، وربما عبر الشاعر بكلمة " لعنة" للغة البديلة في إشارة إلى أن أول من سيكوى بنارها أولئك المتشدقون بها .

وحق للغة أن تبكى حالها في ظل المدن والقصور والعيش الرغيد ، تود لو عادت لأيام عزها على ألسنة أهل الخباء والبيد ، فهو يرى أن المرء في ظل الجدب وشظف العيش أحرى أن يعلى قيمَه ويستنهض هِمَمَه ويترفع عن تقليد غيره لاسيما في باطل الأمور ، كما أنه يرى في ضياع اللغة مصيبة كبرى ، وليس ذا نفس حية من لا يتأثر بالمصائب.

وفى نهاية قصيدته أسهب " الرافعي" محذراً من سوء العاقبة وفداحة الخطب حين تضيع اللغة وينتصر أعداؤها، يقول :

فهـل نضـيع مـا أبقـى الزمـان لنـا ونــنفض الكــفَّ لا مجـد ولا حسـبُ
إنــا إذاً سـبةٌ فــي الشـرق فاضـحة والشــرق منــا وان كنَّــا بــه خــرب
هيهـات ينفعنـا هـذا الصـياح فمـا يجـدى الجبـان إذا روَّعنــهُ الصَـخَبُ
ومـن يكـن عـاجزاً عـن دفـع نائبـة فقصــر ذلــك أن تلقــاه يحتســب

لا شك أن اللغة هى رمز القومية ومبعث الفخر حين يكون الفخار ، ولهذا يسأل الشاعر مستنكراً كيف نضيع اللغة وقد حبانا بها الزمان مبعثاً للمجد والشرف ؟ ، وفى ضياعها خراب الشرق، وجلب العار والفضيحة لأبنائه الذين يحاول الشاعر أن يستنهض هممهم للدفاع عن اللغة قبل فوات الأوان حين لا يجدون ما يفعلوه سوى الصياح والعويل وهى علامات العجز التي اشتهر بها أبناء الشرق حيال مكائد الغرب التي تحيط بهم ، ثم يختم الشاعر قصيدته بما يبعث على الأمل ، فهو يرى أن اللغة العربية في ذاتها قوية وقادرة على حماية نفسها كالمعدن الأصيل لا ينال منه الصدأ حين يعتريه .

ثالثاً: دراسة فنية للقصيدة :

أ- ظواهر الأسلوب:

أكثر ما بدا واضحاً في أسلوب الرافعي في قصيدته استخدامه الحكمة شعراً فقد ضمت أبيات القصيدة كثيراً من الأقوال الرائعة التي تتضمن معنى صحيحاً ومسلماً به أصاب به الشاعر كبد الحقيقة ، ومن ذلك قوله : " وما عند الغراب يزكى البلبل الطرب " .

فالطيور تختلف في أصواتها ، وما يقوى فيها يكون عدواً لما يضعف ، فالبلبل لا يمدح صوته الغراب ، ويؤدى هذا المعنى نثراً قولهم : " فاقد الشيء لا يعطيه " ، " والناس أعداء ما جهلوا " وقد أراد الشاعر من هذا المعنى التأكيد على حقد أصحاب اللغات الأخرى على اللغة العربية وأهلها ، ومن الحكمة أيضًا قوله :

إن الأمور لمن قد بات يطلبها فكيف تبقى إذا طلابها ذهبوا

يستنهض الشاعر أبناء اللغة العربية للحفاظ عليها وقد يؤدى هذا المعنى قولهم نثراً " من طلب العلا سهر الليالي " وغير ذلك كثير من الحكم التى ساقها " الرافعى " فى هذه القصيدة ، مثل قوله واصفاً تأثر الطباع ، وأن من لا يتأثر بالمصائب فليس ذا نفس حية :

أرى نفوس الورى شتى وقيمتها عندي تأثرها لا العز والرتب

وقوله واصفاً أمة العرب إذا قعدت عن نصرة لغتها الفصحى :

ومن يكن عاجزاً عن دفع نائبة فقصر ذلك أن تلقاه يحتسب

من بديع الحكمة أيضاً تلك التي ختم بها قصيدته مؤكداً أن قوة اللغة العربية أساس الحفاظ عليها يكمن في أصلها النفيس وحضارتها العربية قوله :

وفي المعادن ما تمضى برونقه يد الصدا غير أنْ لا يصدأ الذهب

ولا شك أن كثرة ورود الحكمة في النص دليل على الحنكة وخبرة السنين وفهم دقائق الأمور ، وهى فائدة للمتلقي أضافت للقصيدة جمالاً فوق الجمال .

ومن ظواهر الأسلوب أيضًا لدى " الرافعي" فى هذه القصيدة إلحاحه على الاستفهام لإنكار المعنى أو تقريره ، الأول : مثل قوله عن تقليد أبناء الشرق للغرب في باطل الأمور :

أنترك الغرب يلهينا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحب ؟

وقولة مستنكراً ضياع اللغة العربية على يد أبنائها :

فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا ونـنفض الكف لا مجد ولا حسب ؟

والثاني مثل قوله :

ألم تر الحطب استعلى فصار لظىً لمَّا تأثَّر من مس اللظى الحطبُ ؟

فهو يرمى إلى ما يسهمه الجدب وشظف العيش من إعلاء القيمة وبيان محاسن الأمور ، على حد قول أبى تمام :

لـولا اشـتعال النـار فيمـا جـاورت ما كان يعرف طيب عرف العود [١]

والحق أن الاستفهام قد أثرى القصيدة وأغناها تنقلاً بين فنون القول كما أنه أعرب عن حزن الشاعر وحيرته وقلقه تجاه ما يُراد بلغة القرآن وأمة العرب .

ب-الألفاظ والصور التعبيرية :

لم تختلف ألفاظ الرافعي في هذه القصيدة عن ألفاظه في نتاجه الأدبي الذي يتميز بالألفاظ الواضحة والسهلة من حيث كونها لا يحتاج متلقيها إلى كتب المعجمات اللغوية لفهم معناها ، ولكن هذه الألفاظ في الوقت نفسه تأتى قوية قاسية حتى في التعبير عن الحزن أو الجمال ، فهو هناك يحكى ألمه لما يراد باللغة الفصحى وينشد في أبنائها الدفاع عنها والتمسك بها ، فنجده مثلاً في بداية قصيدته يعبر بكلمة " يكيد"وما فيها من معنى الجفاء والألم تعبيراً عن إحساس الشاعر بما يراد للغة ، كما نجده يعبر بألفاظ " النكبة ، والغراب ، والريب ، والكذب ، والخراب ، والحطب ، واللظى ، والصخب... الخ " ولعل ذلك أحرى عنده في التعبير عن تلك الهجمة الشرسة على اللغة الفصحى .

أما أكثر ما يلاحظ في الصورة التعبيرية الكلية للقصيدة هو كثرة ألفاظ الاستفهام والشك والتهويل ، ولاشك أن هذا قد أفاد القصيدة وأغناها تنقلاً بين فنون القول كما أنه أعرب عن قلق " الرافعي "وحيرته وحزنه الشديد تجاه ما يراد بلغة القرآن والأمة العربية .

١- قبله قوله الذائع :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

[ينظر : ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام – جـ ١ – ص٣٩٧ – ط دار المعارف – القاهرة – الخامسة – دون تاريخ] .

جـ - الخيال والصورة التعبيرية :

تصوير " الرافعي " في هذه القصيدة يميل إلى الواقعية وإن التقى فيه الخيال فيكون محدود الأبعاد ، غير أن الصور القليلة التي ضمتها القصيدة تثبت بما لا شك فيه أن لدى الرافعي عين لاقطة وأداة تصويرية قادرة على نقل المعاني إلى صور مرئية ، ولعل من ذلك تجسيده للغة في ظل المدن والقصور تبكى تلك الأزمان الخوالي وهى عزيزة تجرى على الألسنة في الخيام وبين الصحارى ، يوم أن كانت تلفحها الشمس وتنفحها الريح ويعوزها الماء والظل، والحق أن اللقطات التصويرية في القصيدة لا تتناسب مع هذه القدرة لدى الشاعر على التصوير ، ولعل قصر النص أسهم في قلة مشاهده التصويرية .

د- البنية الإيقاعية والموسيقا:

جاءت القصيدة على بحر البسيط " مستفعلن فاعلن " وهو بحر يتناسب مع مرارة الشكوى ويتسع للإحساس بالألم والحزن وهى الفكرة المسيطرة على الشاعر ، وكذلك لتوهج عاطفته ونهوضه للدفاع عن لغته الأصيلة .

وقد استخدم الشاعر بعض الأنماط الصوتية التي أسهمت في قوة البنية الموسيقية ، مثل " حسن التقسيم " في قوله :

والشمس تلفحه والريح تنفحه والظل يعوزه والماء والعشب

حيث قسم الشاعر البيت إلى ما يشبه القوافي الداخلية بجانب قافية القصيدة ، فبدا البيت معزوفة موسيقية مستقلة وكأنه قصيدة صغيرة متواترة الصور وراقصة الإيحاء .

وأيضاً من هذه الأنماط الموسيقية في القصيدة " رد العجز على الصدر " في عدة أبيات من القصيدة ، مثل قوله عن اللغة :

كانت لهم سبباً في كل مكرمة وهم لنكبتها من دهرها سبب

لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عرب

حيث توافق آخر كلمة في البيت مع كلمة في شطره الأول ، وقد كرر هذا النمط الموسيقى في القصيدة بما أعطاها توقيعا خاصاً ونغماً مميزاً .

أما عن الموسيقا الداخلية فإن الشاعر بحسه الصادق ينتقى أنسب الكلمات جرساً لمعانيه ، فتأتي الكلمة بالإضافة إلى مدلولها اللغوي ذات جرس معبر يعمق المعنى ويغرسه في الوجدان ، وتكتمل البنية الموسيقية للقصيدة بقافية الباء المضمومة وما تحدثه من صوت يوحى بالقوة ويشعر بالصلابة والشدة وهى أوصاف تفضي إلى أحاسيس حية بمعاني المقاومة في نفس الشاعر المدافعة عن لغته الجريحة .

المبحث الثالث

القصيدة الثالثة

(اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها) لحافظ إبراهيم

"اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها[١] " لحافظ إبراهيم[٢] "

١- رَجَعْتُ لنفسي فاتهمتُ حَصاتي ... ونَاديت قومي فاحتسبتُ حياتي

٢- رَمَوْني بعقمٍ في الشباب وليتنى ... عقمتْ فلم أجزعْ لقول عداتي

٣- ولدتُ ولما لم أجدْ لعرائسي ... رجالاً وأكفاءً وأدتُ بناتي

٤- أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

٥- فيا ويحكم أبلى وتبلَى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي

٦- فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي

٧- أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات

٨- أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

٩-أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدي في ربيع حياتي

١٠-ولو تزجرون الطير يوماً علمتمُ ... بما تحته من عثرة وشتات

١١-حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات

١٢-وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات

١٣- أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة

١٤- وأسمع للكُتّاب في مصر ضجةً ... فأعلم أنَّ الصائحين نعاتي

١٥-أيهجرني قومي – عفا الله عنهم- ... إلى لغة لم تتصل برواة

١- ديوان حافظ إبراهيم – ضبطه وصححه وشرحه أحمد أمين ، أحمد الزين و إبراهيم الإبياري – ص ٢٥٣ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – الثالثة ١٩٨٧ م .

٢- حافظ ابراهيم : صنو شوقي في إحياء دولة الشعر ، ولد عام ١٨٧٢ م لأب مصري وأم تركية، تخرج في مدرسة الحربية ، وتألقت شاعريته ، واشتهر بحب الوطن ، يمتاز شعره بالبلاغة وقوة الأسلوب ، ولقب بشاعر النيل ، وتوفى عام ١٩٣٢ م . [تراجم شعراء الوطنية في مصر – لعبد الرحمن الرافعي – ص ٩٥ – دار المعارف – دون تاريخ]

١٦- سَرَتْ لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
١٧- فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات
١٨- إلى معشر الكتَّاب والجمعُ حافلٌ ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
١٩- فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
٢٠- وإما مماتٌ لا قيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بممات

أولاً : مناسبة القصيدة :

كتبها حافظ إبراهيم ونشرها عام ١٩٠٣ ، دفاعاً عن اللغة الفصحى بعد أن ألَّف أحد القضاة الإنجليز في مصر – ويسمى " ولمور " كتاباً عما أسماه " لغة القاهرة " وضع لها فيه قواعد ، واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية واتخاذها لغة للعلم والأدب ، وكان الناس قد تنبهوا لهذا الكتاب بعد أن أشاد به " المقتطف " في باب " التقريظ والانتقاد" لكن كثيرا من المثقفين فطن لهذه الدعوة الهدامة ، وهبت الصحف تحمل على " المقتطف " والكتاب وصاحبه مشيرة إلى خطر هذه الدعوى التي تقصد محاربة الإسلام في لغته ، وفى ذلك الوقت تحديداً كتب حافظ إبراهيم هذه القصيدة الذائعة والتي تعد أماً لكل ما جاء بعدها من هذا الغرض [١] فهى ليست مجرد نص شعري يمكن ان تأخذنا بلاغته وفصاحته أو تطربنا موسيقاه وعذوبته ، فضلاً عن إحكام صنعته واختيار مفرداته وتراكيبه التي جعلته نابضاً بشاعرية صاحبه ، وإنما هى موقف لشاعر كبير يقفه ممثلاً للنابهين من أبناء أمته في مواجهة تلك الهجمة الشعواء على لغة القرآن الكريم.

ثانياً : أفكار النص :

قدم " حافظ إبراهيم " هذا النص للتعبير عن فكرة رئيسة هي الدفاع عن اللغة الفصحى وبيان فضلها والكشف عن مفاخرها في ظل الدعوة الهدامة التي تنادى

١- ينظر " هدم اللغة العربية " مقال للدكتور / محمد محمد حسين في كتاب " أزمة مصر " – شبكة المعلومات الدولية – الموقع **www.alukah.net/litraure**

بازدرائها وتقديم العامية عليها وبتأمل النص نجد الشاعر يصل الفكرة عبر ثلاثة مناح للنظم ، ففي بداية القصيدة يتحدث الشاعر بلسان اللغة العربية وينطقها شاكية تكشف عما يؤرقها وتبوح بما يكتنف نفسها من تلك الاتهامات التي توجه إليها ، ثم في منحى آخر يدلف الشاعر – ولا يزال بلسان اللغة الفصحى – إلى بيان مفاخرها والكشف عن أسباب اعتزازها ، وتوجيه اللوم إلى أبنائها الذين تركوها للضعف والهوان حين لم يعرفوا قيمتها .

أما في آخر القصيدة فيقدم الشاعر دعوته بلسانها إلى من ناصروها فأعزوها ووجدوا فيها نصرتهم وعزتهم بأن الأمل معقود عليهم وعلى كل غيور لرد هذه الدعوة الآثمة ، والحفاظ على اللغة والعمل على قوتها قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم .

ثالثاً : عرض وتحليل لأبيات القصيدة :

بدا استنطاق الشاعر للغة العربية والحديث بلسانها أبلغ فى التعبير عن الفكرة من حكايته عنها ، وبدا واضحاً أن حديث اللغة عن نفسها وبثها شكواها أضاف للمعنى غناءً ورواءً ، وليس أقل من هذا حين يعبر من ليس من شأنه التعبير ، يقول " حافظ إبراهيم " :

رَجَعْتُ لنفسي فاتهمتُ حَصاتي ونارديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي

رَمَوْني بعقمٍ في الشباب وليتني عقمتْ فلم أجذعْ لقول عداتي

ولدتُ ولما لم أجدْ لعرائسي رجالاً وأكفاء وأدتُ بناتي

تبدو اللغة في هذه الأبيات حزينة باكية تعود إلى نفسها وتفكر في حالها وما آل إليه أمرها حتى لتكاد تفقد الثقة في نفسها وتسئ الظن بقدرتها على المقاومة وتصدق ما رموها به أعداؤها من الضعف والضيق والقصور عن الوفاء بالمخترعات الحديثة وإيجاد أسماء عربية لها ، وهى تنادى أبنائها علَّها تجد من يهبّ لنجدتها ، ولمَّا لم تجد مجيباً لندائها تدخر عند الله حياتها ، وتتمنى أن لو فقدت حياتها حتى لا ترى اليوم الذي تواجه فيه هذه الاتهامات ،

ثم يؤكد " حافظ إبراهيم " أن العيب ليس في ذات اللغة ، ففي ماضيها الزاهر وسعت كتاب الله عز وجل حين سلكها في أسلوب معجز ونسقها في نظم بديع يحمل غايات نبيلة وتشريع محكم ، وكذلك بلغت الآفاق حين وجدت علماء ومخترعين عرب سجلوا علومهم بحروفها ، أما هذا الزمان وقد أفلت العلم ومنجزاته من أيدى العرب ، فهي تبقى نامية ولكن لا تجد لألفاظها من ينتفع بها ، فينطفئ بريق سحرها وتختفي أسرارها ، وعلى ذلك يبقى القصور في أهل العربية وليس في ذاتها .

ولتأكيد هذا المعنى استطرد الشاعر يوضح بلسان اللغة مفاخرها وتقصير أهلها ، يقول:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عزَّ الدواءُ أساتي

فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم ان تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عزَّ أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

حق للغة بعد أن بثت شكايتها أن تنتقل إلى عبارات الاعتزاز والشموخ فترى نفسها أو يراها الشاعر بحراً واسعاً مترامي الأطراف كثير الخير وجليل العطايا ، فيه أحشاء وحوايا تستقر في أعماقها الأحجار الكريمة المتوهجة التى لا يستطيعها سوى الغواص الماهر الذى يصل إلى أغوارها فيكشف أسرارها ، ثم تتوجه اللغة إلى أعدائها المتشدقين بتقصيرها: هل سألتم ذلك الغواص الماهر – العالم بأسراري – عن خيرى وعطاياى وصفاتى .

وبعد هذا الفخر تتوجه اللغة إلى أبنائها لائمة ومحفزة تخشى أن ينال الأعداء منها فهو الشرُّ المحدق الذى لا يساويه شر ، وترى الحل والدواء في يد أولئك الأبناء ، وإن كانوا هم أنفسهم أسباب الألم ، ثم يبث " حافظ إبراهيم" بلسان اللغة – مخاوفه أن تنتصر تلك الدعوة الهدامة وتحين وفاة اللغة ، فموتها موت الأمة لأن حياة الأمة في اتصالها بكتاب ربها وتراثها وهويتها ، وإذا قدر لها أن تموت فليس بأيدي أبنائها .

ويؤكد الشاعر هذا المعنى بما يراه من عزة الغرب ومنعته التي تنبع من ذيوع لغته التي اهتم بها ونماها وعمل على نطق العالم بها وما أعطى ذلك للغرب من قوة منحته فرض سيطرته وثقافته.

كما يرى" حافظ إبراهيم " ثمة عامل آخر أسهم في قوة الغرب ومنعته هو تسجيل العلوم الحديثة بلغته في وقت غاب فيه العرب عن العلم الحديث وعن تعريبه .

وقد استطرد الشاعر في وصف مفاخر اللغة وحضارتها ، فهو يقول مخاطبًا أبنائها :

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ... ينادى بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطيرَ يوماً علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلينَ قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتُه ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجةً ... فأعلم أن الصائحين نُعاتي

يلجأ الشاعر للاستفهام مخاطباً الناطقين بالفصحى مستنكراً ومتسائلاً :

كيف تصغون وتطربون لخداع الغرب حين يزين لغته ويقدمها بديلة للغة العربية المراد طمسها وازدرائها ؟ ، ويوضح الشاعر أن هذا التآمر على لغة العرب قد ظهر وبان حتى ليعرفه الطير في السماء فيود لو ينذر بشرِّ هذه المؤامرة .

ويدعو الشاعر بالسقيا – وهو دعاء تمجده العرب – مترحماً على أهل حضارة اللغة الراقدين تحت التراب ، فقد كان يشق عليهم ويؤلمهم أن تضعف اللغة أو تفقد قيمتها وعزتها ، وأفاض " حافظ إبراهيم " يصف بلسان اللغة حسرته على حضارة اللغة العربية وأبنائها الذين حفظوا تراثها زمان كانت موئلا لطلب المفاخر والمعالي ، وكان الغرب يقف من لغة العرب موقف التلميذ ، والشرق يطلب ودها

ورضاها ، وكانت تضم علوماً وأسماء عربية تنعقد لذكرها ألسنة الغرب حتى بعد أن درست وصارت أعظما تحت التراب ، ولا شك أنها تتمنى أن يعودوا ليعيدوا مجدها وعزتها ويقفوا معها في وجه تلك المآسي اللغوية التي يعرضها كتاب الصحف حين تتوارى فيها اللغة الفصيحة وتدنو من القبر ، وتتقدم العامية معلنة عن نفسها لغة لحياة الفكر والثقافة ، ولا شك أنها جريمة كبرى لكتَّاب الصحف فيها وافر نصيب .

وفى الأبيات الأخيرة من القصيدة تؤكد اللغة الفصحى استنكارها لذلك العقوق الذى تلقاه من أبنائها ، فتقول مستفهمة :

أيهجرني قومي – عفا الله عنهم- إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في سبيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإمَّا ممات لا قيامة بعده مماتٌ لعمرى لم يُقَس بممات

تدعو اللغة العربية لأهلها بالعفو والمغفرة رغم عقوقهم وهجرهم لها وتعلقهم بأهداب لغات أخرى تجافى أذواقهم العربية وتراثهم الأصيل ، ولعل الشاعر هنا يعنى اللغة العامية والأعمال الأدبية التي تسرى فيها العجمة كسم الأفاعي ، فتذهب بقوتها وبريقها وتنطقها بضعف اللسان العربي ، فتأتى كثوب مرقع مزركش الألوان في غير تنسيق .

ومن عجب أن هذا الموقف المحافظ " لحافظ إبراهيم " والمتمثل في خشيته الشديدة على اللغة الفصحى لما قد يتسلل إليها- بفعل الترجمة والتعريب – من مفردات أجنبية ، وعدَّه هذا الأمر سبباً للقضاء على اللغة ، نجد لبعض النقاد منهم فاروق شوشة يرصد لحافظ إبراهيم موقفاً مناقضاً لهذا الموقف الذي أورده

هنا ، وذلك في قصيدة أخرى عن الشعر أبدعها حافظ إبراهيم بعد قصيدته هذه بسنوات يعلن فيها نفوره من التقليد والجمود ومحاكاة القدماء ، وقد آن – في رأيه – " أن نرفع عنا الكمائم التي حجبت الهواء الجديد والنسيم الصافي وأن نشم ريح الشمال التي تهب حاملة كل جديد..." [١]، وغير خفى أن " الشمال " رمز لما هو أجنبي وغربي ، ويبدو أن مرَّ السنين كان كفيلاً بتغيير رؤية " حافظ إبراهيم " وتحول قناعاته .

وفى نهاية القصيدة بعد أن أفاضت اللغة العربية في بسط شكايتها – أو الشاعر بلسانها – عادت تنبه أبنائها والناطقين بها أنَّ ضعفها وهوانها مقدمة لوأدها وموتها ، وتنبه لما في ذلك من الذل والهوان لأبنائها بل وما يعقب ذلك من الموت المحقق الذى لا تقوم لهم بعده قائمة .

رابعاً : القصيدة من جهة الفن :

استطاع " حافظ إبراهيم أن يجعل موضوع القصيدة في جميع مقاطعها يدور في فلك اللغة الفصحى قوتها وضعفها ، حاضرها وحضارتها ، وكذلك سلبية أهلها وتكالب الأعداء عليها ، ولا شك أن الشاعر استطاع بذلك أن يجعل من قصيدته نموذجاً لما ينادى به النقد الحديث من الوحدة الموضوعية .

١-" جمال العربية " – فاروق شوشة ص ١٥٥ – ط مجلة العربي – الأولى ٢٠٠٣م.

أ- ظواهر الأسلوب : -

قارئ هذه القصيدة لحافظ إبراهيم يلاحظ كثيراً من ميزات في الأسلوب ، غير أنَّه ثمة ميزتين رئيستين طفتا على سطح أسلوبه فيها ، الأولى : تتعلق بالخيال وهى " التشخيص " والثانية : بالأسلوب الإنشائي وهى : " الاستفهام " .

أما التشخيص : فليس أدل عليه في القصيدة من بث النبض الانسانى واستنطاق الشاعر للغة العربية وتجسيدها تشكو وتتألم وتقص حكايتها ولا يصدر ذلك إلا من إنسان ، والتشخيص من أدوات التصوير الذائعة التي يلجأ إليها الشعراء في مواضع كثيرة من قصائدهم ، وقد اختار حافظ إبراهيم تشخيص اللغة الفصحى واستنطاقها لتحكى، ولا شك أن هذا الأسلوب كان أبلغ في إصابة الغرض من القصيدة ، كما أنه أكثر تحقيقاً لمعنى الشعر حين ينطق من لا ينطق ويعبر من ليس من شأنه التعبير .

ولعل هذه المبالغة في إصابة المعنى ، وتحقيق معنى الشعر هما داعيا "حافظ إبراهيم " أيضًا لتكرار الاستفهام الذي لجأ إليه كثيراً في قصيدته ، ومن ذلك قوله في مخاطبة الفصحى للناطقين بها :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدي في ربيع حياتي ؟

وكذلك قوله :

أيهجرني قومي – عفا الله عنهم – إلى لغة لم تتصل بسواة ؟

وهما استفهامان خرج بهما الشاعر من إطارهما النمطي إلى معنى الإنكار معلناً عن رفضه وتبرمه بما تلاقيه اللغة من كيد أعدائها وجحود أبنائها .

ب- الألفاظ والصورة التعبيرية:

جاءت ألفاظ القصيدة ميسورة الفهم معبرة عن المعاني التي سيقت لها ، وبدا أن الشاعر كان يعنى بعض الألفاظ المفردة التي تنطوي على كبير المعاني مثل " زجر الطير " في قوله :

ولو تزجرون الطير يوماً علمتم بما تحته من عثرة وشتات

فلعل الشاعر هنا يضيف إلى معنى زجر الطير المعروف عند العرب معنى آخر يلصقه بهذه الدعوة الهدامة للغة العربية، بأنها صيحة تنذر بالشر ، وتتكهن بالشؤم ، وتهدد بالدمار ، ويرى الشاعر هذه المعاني من الوضوح بمكان حتى يراها الطير حين يُزجر فيسير باتجاهها منبهاً لشرها وخطرها .

ومن هذه الألفاظ أيضاً لفظة " الغواص " ، ولعل " حافظاً " قصد بها الأديب صاحب الموهبة والوعي والثقافة وليس غير الأدباء يخوضون بحر اللغة فيعرفون أسرارها ويعودون محملين بكنوز ولآلئ لا تتأتى لغيرهم ، ولا أحسب الشاعر قصد باللفظة علماء اللغة مثلاً وإن أسهموا في تراثها وغناها بالتبويب والتنظير والتفصيل .

غير أن النصفة تقتضى القول بأن " حافظاً " بقدر توفيقه في اختيار ألفاظ عناها وقصد من ورائها كبير المعاني بقدر ما تأبى علية التوفيق في اختياره بعض الألفاظ التي أخذها عليه كثير من النقاد ، مثل لفظة " الجرائد " " فإنها تتنافى مع غرضه في القصيدة وهو الحفاظ على الفصحى ، فهي كلمة غريبة دخيلة تشوه وجه الفصحى ، وكان من الممكن أن يأتي بمثل معناها في كلمة " صحيفة " ، وكذلك كلمة " الإفرنج" فهي كلمة غريبة عن لفظ الفصحى ولها بدائل فى لغتنا ، وكذلك " المعجزات " التي هي من صنع البشر فهذه مبالغة ، إذ ليس ما حققه الإنسان من نظريات ومخترعات بمعجزات لأنها متغيرة من حال إلى حال والمعجزة خالدة لا تتغير ولا تتبدل ..."[١]

ومما أخذ عليه أيضا لفظة : " وسعت كتاب الله " ، والصحيح أنَّ كتاب الله هو الذي اتسع لها حتى نالت بسببه منزلة عالية شريفة ، فلولا كتاب الله المعجز لما خلدت اللغة بصورتها التي هي عليها ، " كما أن اللغة إن اتسعت للقرآن لفظاً فلا تتسع له غاية وتشريعاً ، لأن التشريع والأخلاق في القرآن الكريم ليس من

١- الأدب العربي الحديث ونصوصه – أ . د علي علي صبح – ص ٥٩ ، ٦٠ – ط مركز كتاب كلية اللغة العربية بالقاهرة .

طبيعة اللغة جدةً وحيويةً ومرونةً في الاستعمال والتطويع للمعاني والأغراض الجديدة ..." [١] .

وعلى الجملة يمكن القول أن هذه المآخذ لم تنل من عذوبة ألفاظ القصيدة ويسرها وتعبيرها عن المعاني التي سيقت لها ، وأهم ما يدل على ذلك بقاء هذه القصيدة " لحافظ " واسطة العقد والأكثر ذيوعاً بين أخواتها في غرضها .

جـ - الجمال والصورة الشعرية :

يعد هذا النص صورة كلية مركبة من عدة صور جزئية نتجت عن تكلم اللغة ونطقها تحكى قصتها بين الماضي والحاضر خبراً وإنشاءاً ، وأكثر ما يدل لذلك أن يستهل " حافظ إبراهيم " قصيدته بعدة صور جزئية بيانية موحية في قوله :

رَجَعْتُ لنفسي فاتهْمتُ حَصاتي ونادْيتُ قومي فاحتسبْتُ حياتي

رَمَوْني بعُقْمٍ في الشبابِ وليتني عَقِمْتُ فلم أجذعْ لقولِ عُذَاتي

فالرجوع للنفس ، واتهام العقل ، ونداء القوم ، واحتساب الموت ، والشعور بالجذع ، والإصابة بالعقم ، كلها أفعال صدرت من اللغة بطريق الخيال إذ لا تصدر فى الحقيقة إلا من إنسان .

ومن بديع تصوير الشاعر في القصيدة ما جاء في قوله :

أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ فهل سَأَلوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتى

فبطريق الخيال وأدوات البيان والقصر جعل الشاعر اللغة -بألفاظها وما تضم من أسرار - كالبحر في العمق والاتساع وما يضم من هبات ، وجعل للبحر أحشاءً على قدره ، وشبه أدباء اللغة الغيورين عليها والكاشفين عن مخبوئها بالغواصين العالِمين بأعماق البحار وعطاياها ومن بديع الصور البيانية فى القصيدة أيضًا تلك التي جاءت في البيت :

أَيُطْرِبُكُم من جانبِ الغربِ ناعبٌ يُنادِى بِوَأدِي في رَبيع حَياتي

٢- المرجع السابق ص ٥٩ ، ٦٠ .

حيث يرى الشاعر صوت صاحب الدعوة الهدامة بتقديم العامية على الفصحى يماثل صوت الغراب الذي يكرهه الناس ويذيع بينهم بما ينذر من شؤم وأذى .

ولعل أكثر ما يُلحظ على الصور الفنية التي ضمتها القصيدة أنها صور قديمة في الشعر العربي مثل اتهام الحصاة ، وسقيا العظام ، ولين القناة ، وغيرها من الصور التي – ولا شك – أسهمت في المبالغة في إصابة المعاني المراده لدى الشاعر ، غير أنها من جهة الفن أيضاً كشفت لنا عن نظرة " حافظ إبراهيم " المتأثرة بمحاكاة الماضي ومراعاة الموروث اللغوي والثقافي ، والميل إلى المحافظة والبعد عن المغامرة والتجديد .

د- البنية الإيقاعية والموسيقا :-

جاءت القصيدة على بحر الطويل وهو من أشهر البحور وأقدمها ، ورغم أنه من أكثر البحور جرياناً على ألسنة الشعراء إلا أنه في هذه القصيدة جاء موافقاً لغرضها ، فيبدو أن " حافظاً " وجد في طول تفعيلاته واتساعها ملائمة لغرض الشكوى وبث الهم واستنفار الهمم ، وأفكار كثيرة أخرى عبرت عنها القصيدة ربما لم يكن يتسع لها إلا بحرُ طويل .

كما اختار الشاعر قافية مطلقة ، نتجت عن حركة مجراها بالكسر ياء الوصل فمنحت صوت القافية موسيقا عذبة ونغماً رائقاً.

أما عن الظواهر الموسيقية في القصيدة فليس أكثر من " التجنيس " و"التكرار" وهما من الكثرة في القصيدة ما جعلهما يضيفان عليها نغماً ملموساً وتوقيعاً صوتياً واضحاً لاسيما التجنيس الذي جاء فى ثمانية أبيات من ثلاث وعشرين بيتاً هى أبيات القصيدة .

المبحث الرابع

القصيدة الرابعة

" ناصر الفصحى" للشاعر " محمود غنيم "

" ناصر الفصحى [١] " للشاعر " محمود غنيم " [٢] .

١- يـا رافعـاً رايـة الفصـحى ، وباعِثَهـا ... مـن وحشـة البْـدو فـي زاه مـن الحلـل
٢- يـارُبَّ قُنبلـة مـن أحـرف صُـنِعتْ ... ألقَيْتَهـا غيـر هَيَّـاب ، ولا وَكِـل
٣- والقـومُ أفـواههم فـي الحفـل فـاغرةٌ ... وأنـت أثبـتُ وَسْـطَ الحفـل مـن جبـل
٤- دعوت باللغة الفصحى إلى اللغـة الـ ... فصـحى ، فأَيَّـدْتَ قـولَ الحـق بالعمـل
٥- كأنمـا كـان أوصـاك الخليـلُ علـى ... تراثـه ، أو نمَـاك الأسـودُ الـدؤلي
٦- إن الـذىَ يْشـنَأُ الفصـحى وينكِرُهَـا ... يـدعو علـى لغـة القـرآن بالشَّـلَل
٧- إن جـادلوك ولَجُّـوا فـي جِـدالهمُو ... فـالحق قَـدْ كَـان لـم يَسـلَمْ مـن الجَـدل
٨- والجهـر بـالحق بـين المنكـرين لـهُ ... رسـالةُ الله أوْحاهـا إلـى الرسُـل
٩- الجهـلُ عِلَّـةُ مـا قـال الخصـوم , وإن ... تَـذَرَّعُوا سـوى هـذا مـن العلـل
١٠- هيهـات تجمـع يومـاً شـملنا لغـة ... بـلا قواعـد تحميهـا مـن الخلـل
١١- إنـي أخاطـب سـكان الكفـور فـلا ... أعـي الخطـاب ولا القـاموس يشـرح لـي
١٢- مـا وحَّـد العربَ كالفصـحى فـإن وهنـت ... فبشِّـر القـوم بـالخزلان والفشـل

أولاً : مناسبة القصيدة :

أنشدها الشاعر في حفل تكريم صديقه الشاعر الأستاذ/ " عزيز أباظة " [٣] بمناسبة منحه جائزة الدولة ثم انتقل إلى الدفاع عن اللغة الفصحى وقد عدّ "عزيز أباظة" ناصراً لها.

١- الأعمال الكاملة – محمود غنيم – المجلد الاول ص ٨٢٢ – ط دار الغد العربي١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م
٢- محمود غنيم : شاعر مصري ولد بقرية مليج بالمنوفية عام ١٩٠٢ م ، درس بالمعهد الازهري بطنطا ، ثم التحق بمدرسة القضاء وتخرج من دار العلوم ، ومن دواوينه " صرخة في وا د " ، و " في ظلال الثورة " ، و "رجع الصدى " ، وتوفى عام ١٩٧٢ م . [أعلام الزركلي ٧ / ١٧٩]
٣- عزيز محمد أباظة : شاعر وكاتب مسرحي ، ولد بالزقازيق عام ١٨٩٨ م ونشأ في القاهرة ، واتصل صغيراً كجميع الأسرة الأباظية بكثير من القمم الأدبية ، وتخرج فى كلية الحقوق ، وعين وكيلاً للنائب العام ، وهو شاعر صادق تخرج من مدرسة شوقي ، وأشهر دواوينه " أنات حائرة "، وتوفى عام ١٩٧٣ م . [أعلام الأدب العربي المعاصر – لروبرت كامبل ١٦٧/١ – ط الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت ١٩٩٦ م] .

ثانياً : أفكار القصيدة :

جاءت القصيدة في مديح الشاعر " عزيز أباظة " وهى الفكرة الرئيسة التي انطلق " محمود غنيم " من خلالها للدفاع عن اللغة الفصحى على اعتبار أن "عزيز أباظة " ناصر لها ومدافع عنها في ظل الهجمة الهدامة بازدرائها وتقديم العامية واللغات الأجنبية عليها ، ومن أفكار النص التي أوردها الشاعر أيضاً انطلاقاً من فكرته العامة : الدفاع عن الشعر ضد أصحاب دعوات التجديد.

ثالثاً : الشرح والتحليل :

يجدر القول هنا أن تركيز الضوء على أبيات الدفاع عن اللغة الفصحى وعددها في القصيدة اثني عشر بيتاً هو الأجدر بموضوع هذه الدراسة ، وقد بدأها الشاعر بقوله منادياً ومحيياً " عزيز أباظة " :

يارافعاً رايـة الفصحى ، وباعِثَها ... من وحشة البْدو في زاه من الحلل
يـارُبَّ قُبلـة مـن أحـرف صُـنِعتْ ... ألقَيْتَهـا غيـر هَيَّـاب ، ولا وَكِـل
والقوم أفواههم في الحفل فاغرةٌ ... وأنت أثبتُ وَسْطَ الحفل من جبل

عدَّ " محمود غنيم الشاعر " عزيز أباظة " حاملا للواء الفصحى وباعثاً لنهضتها بشعره الراقي الفصيح والمتجدد بما ضمّنه من محسنات تخلص بها من جفوة البداوة وقسوتها ، ثم يصفه فى الحفل يتوسط الشعراء منشداً الشعر .

وهم حوله صامتون ، وكأنه جبل شامخ وسط الرمال ، أما قصيدته فكأنها " القنبلة " فى قوة معناها ومبناها .

ويَعُدُّ الشاعرُ شعر " عزيز أباظة " تأييداً للغة الفصحى ونصرة لها ، يقول :

دعـوتَ باللُّغـة الفصـحى إلـى اللغـة الـ ... فصحى ، فأَيَّدْتَ قولَ الحق بالعَمَلِ
كأنمـا كـان أوصـاك الخليـلُ علـى ... تراثـه ، أونمَـاك الأسـودُ الـدؤلي
إن الـذىَ يْشـنَأُ الفصـحى وينكِرُهَـا ... يـدعو علـى لغـة القـرآن بالشَّـلَل

هنا يبرز " محمود غنيم " إكباره للشاعر " عزيز أباظة " " لاختياره تأييد الفصحى بالعمل ، فهو يقدم أشعاره بها فى صورة بليغة رائعة ولا شك أن هذا العمل أفضل دعاية للغة الفصحى ، وأهم دفاع عنها وانتصار لها.

ويبدو أنْ بلغت قصائد " عزيز أباظة "- في تمكن اللغة وعذوبة الإيقاع - مبلغا جعل " محمود غنيم " يرى أنه ربما نظمها تنفيذاً لوصايا " الخليل بن أحمد " و " أبو الأسود الدؤلي " الشخصيتين اللتين استلهمهما من التراث ليرمز بأولاهما لقوة اللغة العربية وقواعدها ، وبثانيتهما لجمال نظمها وعذوبتها ، ثم انتقل إلى الحديث عن مبغضي الفصحى ومنكري فضلها منبهاً إلى خطورة هذه الدعوة التي ترمى إلى النيل من لغة القرآن الكريم بدافع الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين

وعن هذه الدعوة وفى وصف أهلها استطرد " محمود غنيم " يقول :

إن جادلوك ولَجُّوا في جِدالهمُو فالحق قُدْ كَان لم يَسلَمْ من الجَدل

والجهر بالحق بين المنكرين لهُ رسالةُ الله أوْحاها إلي الرسُل

الجهلُ عِلَّةُ ما قال الخصوم , وإن تَذَرَّعُوا سوى هذا من العلل

يوضح الشاعر باطل هذه الدعوة الآثمة , ويدعو أهل اللغة الفصحي أن يقفوا في وجهها ولو اجتمع عليهم أصحابها , فالحق دائماً وأبداً مبتلى بأهل الجدل والجهل والباطل الذين لا يملكون لدعواهم حجة أو دليلاً , ثم يختم الشاعر قصيدته بمخاطبة أهل اللغة الفصحى جميعاً دون التفريق بين أهل البداوة أو الحضر فعلي الجميع أن يعرف أهمية اللغة فهي الأساس الذي تبني عليه وحدة الشعوب .

رابعاً : دراسة فنية للأبيات :

أ – ظواهر الأسلوب :

أسلوب "محمود غنيم " في هذه القصيدة واقعي صادق يحكي الواقع بعيداً عن المبالغة , يصل إلى الحقيقة وأصل القضية من أقرب طريق , فلا تحلية أو تعرية, لكن هذا لا يمنع فضلاً من جمال فني في الأسلوب وصياغة الأبيات.

أما عن ظواهر الأسلوب فالحق إن القصيدة خلت من لازمة أسلوبية تصل إلى حد الظاهرة سوي ما يكون فيها من كثرة "التجنيس" لاسيما في الأبيات التي تناقش قضية الفصحى , وسيأتي تفصيل لذلك في الحديث عن موسيقا القصيدة .

ب – الألفاظ والصورة التعبيرية :-

ألفاظ القصيدة سهلة واضحة خلت من الكلفة والتفاصح بالغريب , وهي في الوقت نفسه تتسم بالجزالة والروعة والمرونة ولعل أكثر ما يدل لذلك قوله في القصيدة :

إني أخاطب سكان الكفور فلا أعي الخطاب , ولا القاموس يشرح لي

فألفاظه بنت طبعه وسجيته لم تتأثر بما يحصرها في معجم لفظي معين , ويبدو أنه كان يكفيه في هذه القصيدة أن يمسك بقلمه لتأتيه الألفاظ إرسالاً معبرة عن فكرته , وربما يستثني من ذلك تجاوز الشاعر حين شَبَّه قصيدته في قوتها ودويها بالقنبلة ووقعها على الأسماع في قوله : " يا رب قنبلة من أحرف صنعت".

جـ – الخيال والصورة الشعرية :

لم يرتكز الشاعر في هذه القصيدة على التصوير أداة للتعبير عن معانيها , ولكن يستثنى من ذلك بعض الصور البيانية النادرة التي يبدو أن "محمود غنيم" شعر لبعض الوقت أنها أَلْيَقُ بغرضه وأقرب لمقصده, مثل تلك التي جاءت في مطلع قصيدته يصف جائزة الدولة التي نالها ممدوحه الشاعر "عزيز أباظة " :

جاءتك مُطرقة من شدة الخَجَل عذراً لها إن تكن جَاءَتْ على مَهَل

عـذراً لهـا ، أنهـا كانَـتْ مُهَرْولَـةً لكـن تكـاثرت الأحجـار فـي السـبل

فقد صوّرُ الشاعر الجائزة وتأخرها على صاحبها بصورة امرأة خجلى من ذنب فعلته ، وهو يطلب لها المعذرة , كما جسَّد الشاعر تلك العقبات والأسباب التي كانت سبباً في تأخر الجائزة على صاحبها بالأحجار التي قد تتواجد في الطريق وتكون سبباً في تأخر من يتعثر بها .

ومن هذه الصور النادرة في القصيدة أيضًا تلك التي جاءت في قوله يصف الحضور في حفل تسليم الجائزة :

والقـوم أفـواههم فـي الحفـل فـاغرة وأنـت أثبـت وسـط الحفـل مـن جبـل

فقد صوَّر الشاعر الحضور أفواههم مفتوحة كناية عن صمتهم وحسن سماعهم لممدوحه الذي يشبه وقوفه , وبرغم ندرة التصوير لدى " محمود غنيم " في هذه القصيدة إلا أنه ليس ثمة شك في عمق تأثيره في بيان معاني القصيدة واتساع مدلولاتها بما لا يتحقق مع غير التصوير من أدوات البناء الفني .

د – البنية الإيقاعية وموسيقا القصيدة :-

يتميز إيقاع القصيدة بالهدوء , وهو أقرب للبطء من السرعة , ولعل أكثر ما أسهم في ذلك هو مجئ القصيدة علي بحر البسيط وهو بحر ثنائي التفعيلات ويعد عنصراً من عناصر البطء والهدوء الذي يتلاءم مع موضوع القصيدة وتعدد أفكارها .

وقد اختار " محمود غنيم " لقصيدته قافية اللام المكسورة التي ربما أسهمت في تكرار الإحساس بحالة الانكسار والحياء التي تعيشها اللغة العربية في ظل الدعوة ضدها , وكذلك يتصف بها حال الجائزة التي جاءت " عزيز أباظة " مطرقة خاضعة . أما عن أهم الظواهر الموسيقية في القصيدة فالتجنيس والتكرار

وقد فرضهما الشاعر على أكثر من ثلثي أبيات القصيدة لاسيما أبيات قضية الفصحى , والحق أنهما من الكثرة في القصيدة بما لا يعوذنا إلى تمثيل .

المبحث الخامس

القصيدة الخامسة

" شمسها لا تغرب" للشاعر " طلعت المغربى "

القصيدة الخامسة:

" شمسها لا تغرب" للشاعر " طلعت المغربى "

أولاً: النص[١]:

درســـت لغـــات جمـــة لكنهـــا ... ســـتظل تشـــرق شمسُـــها لا تغـــرب

دانـت لهـا كـل اللغـات علـى المـدى ... ولهـــا الخلـــودُ لآيهـــا أتعجـــب

لـو رمـت أذكـر مـن مناقـب فضـلها ... لمضـــى الزمـــان وســـورُها لا ينقـــب

أمشـى علـى جمـر الوصـول لـدُرِّها ... كـــل الحـــروب أخـــوض لا أتهيـــب

وأغـوص أبحـث عـن جواهرهـا التـي ... ســهل لهــا عنــدى الــذى يُستصــعب

فـإذا ولجـت البـاب بـاب أميرتـى ... فـــإذا المعـــانى والجـــواهر توهـــب

يـا فرحتـى بالضـاد حـين تخصـنى ... بودادهـــا فـــالعيش عـــيش طيـــب

أمسـى وأصـبح فـي هـوى محبـوبتى ... وأظـــل بـــين نعيمهـــا أتقلـــب

أنـــا عاشـــق لبهائهـــا وجمالهـــا ... أنـــا فـــي هواهـــا رائـــد لا يكـــذب

لغـة سـمت فـوق اللغـات جميعهـا ... لغـــة بهـــا ينجـــاب ذاك الغيهـــب

لغـــة بكـــل المكرمـــات حقيقـــة ... وإلـــى مكارمهـــا المكـــارم تجلـــب

يـا مـن علـى عـرش اللغـات تربعـت ... مـــاذا يراعـــى عـــن جمالـــك يكتـــب

---

(١) ديوانه "بوح السالكين" – ص (٥٩) – ط مكتبة المنار – سوهاج .

ولقد رأيت لك المحاسن جمة ... ورأيت كل فضيلة لك تنسب

أنا كم نهلت وكم عللت وإننى ... ما زال قلبى في الزيادة يرغب

وأنا بشهد الشهد أسقى دائمًا ... من ثغر فاتنتى يطيب المشرب

تدنو كما تدنو الثمار لطالب ... فيذوق منها كل ما هو يعذب

سارت لغات للشعوب بموكب ... وهى المليكة حين سار الموكب

ولها المعانى الساحرات حروفها ... وبيانها .. وبديعها .. لا ينضب

لغتى لها لحن الوفاء عزفته ... نغمًا له كل المسامع تطرب

وإذا تلوت حروف فاتنتى غدت ... بحروفها صحراء روحى تخصب

والفكر يورق والقصائد تزدهى ... وكأنما روضات عقلى تعشِب

لو ظلت عمرى مادحا لجمالها ... فجميع مدحى بعض ما تستوجب

هذى لغات الأرض نجمات بدت ... وحبيبتى بين النجوم الكوكب

هى للحبيب ورودها قد أزهرت ... وعلى العدا نيرانها تتلهب

ووقفت مشدوهًا بحسن جمالها ... هذا الجمال البكر دومًا يخطب

لك ظاهر : الكل يعرف قصده ... وبواطن فيها يتوه مجرب

من رام يسلو عنك ليس له هنا ... من حظك الأسمى نصيب يطلب

خسـيء الألـى ضـلوا الطريـق وليـتهم عرفـــوا الحقيقـــة ثـــم لـــم يتنكبـــوا

الجــود أنـــت وكفـــك البحـــر الـــذى يعطـــى ويعطـــى فيضـــه لا يحجـــب

وهـــم الألـــى لله جـــرد عـــزمهم كـــل علـــى حفـــظ الأميـــرة يـــدأب

فـــاله أســـأل أن يبـــارك جهـــدهم والله ربـــى .. قـــادر .. لا يغلـــب

ثانيًا: أفكار القصيدة:

ضمت القصيدة فكرة رئيسة هى بيان فضائل اللغة الفصحى وهيام الشاعر بها، وقد استطاع من خلال التعبير عن هذه الفكرة أن يقدم عدة أفكار جزئية هى:

بيان كمال اللغة ووفائها بأغراض الناطقين بها، والتأكيد على خطأ وخسران أولئك الذين تنكروا لها ، ونادوا بتقديم العامية والعجمة عليها، ثم تقديم التحية لأبنائها المخلصين الذين يدافعون عنها ويعرفون قدرها.

ثالثًا: عرض أبيات القصيدة:

كتبها الشاعر لبيان فضل اللغة الفصحى ومنزلتها بين اللغات، في إطار الذود عن لغة القرآن الكريم ضد ما يراد لها وللأمة من انكسار وهوان ، يقول:

درســـت لغـــات جمـــة لكنهـــا ســـتظل تشـــرق شمســـها لا تغـــرب

دانـت لهـا كـل اللغـات علـى المدى ولهـــا الخلـــود لآيهـــا أتعجـــب

استهل الشاعر قصيدته ببيان فضل اللغة الفصحى وجمالها السائر، فهو تارة يراها ملكة متوجة ليس في مستطاع أحد أن ينازعها الملك، وأخرى يراها شمسًا لا تزول ولاتنحجب عن رعاياها، وهى لغة القرآن الكريم كتاب الله – تعالى–؛ ومعجزة نبيه – صلى الله عليه وسلم – الباقية بقاء الزمن، والمرسلة لعموم البشر.

ثم هو يفيض في وصف فضلها ومنزلتها بين اللغات ببيان ما تضمه من مفردات يراها الشاعر جواهر ولآلىء، يقول:

لو رمت أذكر من مناقب فضلها لمضى الزمان وسورها لا ينقب

أمشى على جمر الوصول لدرها كل الحروب أخوض لا أتهيب

وأغوص أبحث عن جواهرها التي سهل لها عندى الذى يستصعب

فإذا ولجت الباب باب أميرتى فإذا المعانى والجواهر توهب

دون هذه الجواهر والآلىء نيران وبحار وأنوار ومعارك، والشاعر فارس شجاع، وبحَّار ماهر إلا أنه لا يستطيع إدراك هذه اللآلىء إلا حين تأذن له ملكته وتخصه ببعض فرائدها، فيصوغها نظمًا يصف جمالها ويتغزل في معانيها، يقول:

يا فرحتى بالضاد حين تخصنى بودادها فالعيش عيش طيب

أمسى وأصبح في هوى محبوبتى وأظل بين نعيمها أتقلب

أنا عاشق لبهائها وجمالها أنا في هواها رائد لا يكذب

أنا كم نهلت وكم عللت وإننى ما زال قلبى فى الزيادة يرغب

وأنا بشهد الشهد أسقى دائمًا من ثغر فاتنتى يطيب المشرب

ويعدد الشاعر فضائل اللغة الفصحى وميزاتها، علها تكون سببًا لهذا العشق والهيام يقول:

من رام يسلو عنك ليس له هنا من حظك الأسمى نصيب يطلب

خسىء الألى ضلوا الطريق عرفوا الحقيقة ثم لم يتنكبوا

الجود أنت وكفك البحر الذى يعطى ويعطى فيضه لا يحجب

عاداك بعض المرجفين بجهلهم فعقولهم عن كل فهم تحجب

وقد أفاض الشاعر فى ذكر فضائل اللغة الفصحى والذود عنها، وتقديم التحية لعلمائها وحراسها من أصحاب المجامع العلمية التي نشأت للدفاع عن اللغة ومفرداتها، ثم هو يختم قصيدته مبتهلاً وداعيًا الله – عز وجل – يقول:

فاله أسأل أن يبارك جهدهم والله ربى .. قادر .. لا يغلب

يتضرع الشاعر إلى ربه – تعالى – متمنيًا أن يظل بشعره وقلمه من حراس اللغة والرافعين لواءها، وحق له فلا أجل من الذود عن لغة القرآن حين يكون الفخار.

رابعاً : دراسة فنية للقصيدة:

أ- **ظواهر الأسلوب** : بدت رؤية الشاعر الجمالية واضحة في نصه، وهذه الرؤية الجمالية هى ما نطلق عليه الأسلوب، والذى نعرفه مما يضمه النص من لمحات فنية:

أولها: الطباق وصورالتقابل، وتعد أكثرلمحات الفن وضوحًا لدى الشاعر طلعت المغربى فى هذه القصيدة ومنها، قوله:

درست لغات جمة لكنها ستظل تشرق شمسها لا تغرب

وقوله:

وأغوص أبحث عن جواهرها التي سهل لها عندى الذى يستصعب

وقوله:

أمسى وأصبح في هوى محبوبتى وأظـــل بـــين نعيمهـــا أتقلـــب

فقد تحقق معنى الطباق بين كلمتى "تشرق"، و "تغرب" لتأكيد ما أراده الشاعر من ثبوت معنى الشروق للغة الفصحى، ونفى غروبها، وكذلك تأكيد المفارقة بين الحالين.

وكذلك بين كلمتى "سهل" ، و "يستصعب"، وكلمتى "أمسى"، و"أصبح" بما يفيده معنى التضاد في البيت الأول من شدة البون واتساع الهوة بين سهولة اللغة الفصحى لدى الشاعر، وصعوبتها على من يتنكر لها ويضل طريقها، وما يفيده في البيت الثانى من تكثيف المعنى وتأكيده.

كما تتعدد في القصيدة صور التقابل المعنوى بين شطرى البيت وإن لم يتحقق معنى التضاد بين الكلمات، ومن ذلك قوله عن الفصحى:

هى للحبيب ورودها قد أزهرت وعلـــى العـــدا نيرانهـــا تتلهـــب

فليس ثمة تضاد بين الكلمات والجمل المفردة "هى للحبيب" و"على العدا"، و"ورودها"، و"ونيرانها"، و"أزهرت"، و "تتلهب"، إلا أن التقابل المعنوى بين الشطرين واقع بما يوهم التضاد بينها.[١]

وثانيها التكرار ودلالاته الفنية:

إن تكرار لفظة أو جملة بعينها يوحى بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر وشعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من لحظة لأخرى[٢]، وبذلك يأخذ المتلقى إلى أتون الحالة الشعرية، "ويضع في أيدينا مفتاحاً

---

(١) ولعل هذا مما يلحق بالطباق، ويُبنَى على المضادة تأويلاً للمعنى، ويقال له: " إيهام التضاد". [ينظر: دراسات في المعانى والبديع – د/ عبد الفتاح عثمان – ص٢٠٣ – ط مكتبة الشباب – القاهرة – ١٩٨٣م].

(٢) ينظر: "بناء القصيدة العربية الحديثة" – د. على عشرى زايد – ص٨٥ – ط مكتبة ابن سينا – القاهرة – الرابعة – ٢٠٠٢م.

للفكرة المتسلطة على الشاعر وهو بذلك أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها..."[١]

وقد وجد التكرار بكثرة في القصيدة حتى لا يعد ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر، ومن ذلك تكرار أسلوب "كلمة القافية المنفية بلا" في ثمانية أبيات من القصيدة، منها مطلعها:

لغــة البيــان جمالُهــا لا يُحجــب تبقــى المليكــة ملكهــا لا يُســلب

ثم سبعة أبيات أخرى تقفى بقوله "لا تغرب، لا يُنقض، لا يكذب، لا ينضب، لا يُحجب، لا يغلب، لا أتهيب"، فضلاً عن تكرار الأسلوب في ثنايا الأبيات، ولا تخفى دلالة ذلك على الفكرة المتسلطة على أفق الشاعر من بلوغ معنى نفى كل مذمة عن اللغة الفصحى وتأكيد الدفاع عنها بإثبات فضلها.

وهى المعانى التي تتحقق للشاعر في تكراره لفظة لغة البيان في بداية ثلاثة أشطار متوالية من القصيدة في قوله:

لغــة ســمت فــوق اللغــات جميعهــا لغــة بهــا ينجــاب ذاك الغيهــب

لغـــة بكـــل المكرمـــات حقيقـــة وإلـــى مكارمهــا المكــارم تجلــب

وحق للشاعر، فهى الكلمة موضوع القصيدة، وقد بدا واضحاً ما أفادة تكرار الكلمة من تسلط الفكرة على وجدان الشاعر، ومن ثم على معجمه اللفظى فضلاً عما أفاده للمعنى من تأكيد ووضوح.

وقد وضح ما أفاده التكرار من بلوغ معنى التضرع والقرب،وتأكيد دفاع الشاعر عن الفصحى بطلب العون من الله عز وجل، فهو القادر والمعين، وكذلك ما يفيده من قوة النزعة الدينية لدى الشاعر، بما أفادة التكرار في البيتين من بلوغ معنى

---

(١) قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ص٢٧٦ – ط دار العلم للملايين – بيروت – دون تاريخ.

التضرع والقرب وقوة النزعة الدينية لدى الشاعر، وتأكيد دفاعه عن الفصحى، ولا يخفى أن التكرار في كل مرة يَبين عن دلالة جديدة تسهم في بث الإحساس الشعرى بانفعالاته وأجوائه.

وربما يجدر القول : إن تحقق كل هذه المعانى مشروط بتوظيف فنى صحيح للتكرار، يجعله قادراً على تفجير الإيحاءات وفتح المجالات الدلالية وتوسيع مداها، وإلا فإنه يصبح عبئاً ثقيلاً ينوء به كاهل النص، وربما يصبح مكمن عيب وموطن خلل في الأسلوب.

وثالثها: أسلوب التوكيد:

جاء أسلوب التوكيد تقريراً وتحقيقاً للمعانى ظاهرةً اسلوبية لدى الشاعر في القصيدة، وهو تارة يكون بالقسم كما في قوله:

لغة بها نزل الكتاب من السما فلذا وأيم الله تاهت يعرب

ليؤكد الشاعر معنى العجز والحيرة التي حارتها العرب أمام الأسلوب المعجز للقرآن الكريم حين نزل بلغتهم فلم يستطيعوا أن يأتوا ولو بآية من مثله، حتى لا يسع أحدهم وهو "الوليد بن المغيرة" إلا أن يصف القرآن الكريم: "إن له لحلاوة وإنا عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه ومغدق أسفله، وإنه ليعلوا ولا يُعلى"(١)

وتارة يكون التوكيد بإستخدام الشاعر لأدواته، مثل "لقد" في قوله:

ولقد رأيت لك المحاسن جمة ورأيت كل فضيلة لك تنسب

و"إنَّ" في قوله:

---

(١) ومن جهة الفن أيضاً بدا واضحاً ما في البيت من تحقق معنى العزو والإحالة الخارجية – ظاهرة من ظواهر التفاعل النصى – مع قوله تعالى:{ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}[البقرة: ٢٣]، حيث يُلمح الشاعر إلى النص القرآنى دون أن يذكر شيئاً من ألفاظه، وهى موضوع دراسة سابقة لصاحب هذه الدراسة بعنوان: "بين الإحالة الخارجية والتضمين. دراسة في ظواهر التفاعل النصى وألوان التأويل" – ط المجلة الدورية بكلية الآداب بقنا،جامعة جنوب الوادى – العدد الواحد والأربعين .

أنـا كـم نهلـت وكـم عللـت وإننـى ما زال قلبـى فـي الزيـادة يرغـب

بما يفيده أسلوب التوكيد من تقوية المعنى وتقريره من جهة، وتنبيه المتلقى لهذه المعانى من جهة أخرى.

ب . الوحدة العضوية للقصيدة:

من أكثر الظواهر الفنية التي طفت على سطح أسلوب الشاعرخلو قصيدته من الوحدة العضوية، على الرغم من تحقق وحدة الموضوع إلا أن القصيدة لم تبدُ – ولا في مقطع من مقاطعها– وحدة حية متماسكة أو جسداً واحداً، وإنما يستطيع من يقرأ القصيدة أن ينقل بيتاً أو أبيات من مكانها ويتبعها بما قبلها، ومما يدل لذلك قوله عن الفصحى:

ووقفـت مشـدوهًا بحسـن جمالهـا هذا الجمـال البكر دومًا يخطب

لـك ظـاهر : الكـل يعـرف قصـده وبــواطن فيهــا يتــوه مجــرب

مـن رام يسـلو عنـك لـيس لـه هنـا من حظك الأسمى نصيب يطلب

خسـيء الألى ضلوا الطريق وليتهم عرفـوا الحقيقـة ثـم لـم يتنكبـوا

الجـود أنـت وكفـك البحـر الـذى يعطى ويعطى فيضه لا يحجب

فهو في البيت الأول بضمير المتكلم يصور فكرة جمال اللغة وعشقه لها، وينتقل في البيت الثانى بضمير الخطاب للتعبير عن بعض فضائلها، ثم ينتقل في البيت الثالث بضمير الغيبه للحديث عن هؤلاء الذين ضلوا طريقها، وإن كانت هذه الانتقالات بالضمائر لأفكار جزئية تعبر عن الفكرة الرئيسة للقصيدة إلا أنها

تؤثر في بنية النص، والصلة الفكرية بين أبياته، وتنبئ عن خلوه من وحدته العضوية.

ولعل تزاحم المعانى وتواترها على ذهن الشاعر هو ما دفعه لترك التفكير في تسلسل الصور والتتابع المنطقى للأفكار والمشاعر قبل أو بعد نظم القصيدة.

جـ . الصورة الشعرية في القصيدة:

لعل الشعرلا يكون شعراً إلا بالصورة "فهى البنية المركزيه للشعر، ووسيلته وروحه، وجوهره الثابت وجسده، وفى الصور أكبر عون على تقدير الوحدة الشعرية وكشف المعانى العميقة التي ترمز اليها القصيدة"(١)، فالصورة كانت وما زالت هى جوهر التعبير الجمالى وسر العبقرية الشعرية.

وقد حفلت قصيدة "شمسها لا تغرب" للشاعر طلعت المغربى بعدة صور شعرية منها تلك التي ضمها قوله:

ولقد رأيت لك المحاسن جمة ... ورأيت كل فضيلة لك تنسب

أنا كم نهلت وكم عللت وإننى ... ما زال قلبى في الزيادة يرغب

وأنا بشهد الشهد أسقى دائمًا ... من ثغر فاتنتى يطيب المشرب

تدنو كما تدنو الثمار لطالب ... فيذوق منها كل ما هو يعذب

سارت لغات للشعوب بموكب ... وهى المليكة حين سار الموكب

---

(١) "الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال و الحس" – د. وحيد صبحى كبابه – ص ٩ – ط منشورات اتحاد الكتاب – دمشق ١٩٩٠م.

فهى عدة صور فنية بناها خيال خصب يتمتع بالقدرة على الابتكار والإدهاش، فهو يصور اللغة الفصحى شراباً عذباً وعسلاً مصفى ينهل منه مرة بعد مرة فلا تُروى غلته، ثم يصورها فتاة جميلة يطلب الرى من ثغرها الفتان فيطيب له المشرب، ثم هى شجرة مثمرة تدنو له فيقطف الثمرة ويدسها في فمه ليذوق من حلاوة العبير، كما أنه يراها ملكة متوجة تسير وإلى جانبيها حاشيتها في موكب مهيب يليق بجمالها وجلالها.

وهى صور استعارية تحمل كل منها طاقات وإيحاءات غنية مبنية على التجسيد والتشخيص بما بثه الشاعر في النص من نبض انسانى له دلالته القوية على عشق الشاعر للغة الفصحى وهيامه بها.

كما ضمت القصيدة عدة صور كنائية منها ما جاء في قوله عن اللغة الفصحى:

لو رمت أذكر من مناقب فضلها لمضى الزمان وسورها لا ينقب

فقد صور فضائل اللغة الفصحى حرزاً مكنوناً خلف سور حصين وعلى الرغم من أن الشاعر يعدد دائماً ذكر هذه المناقب والفضائل إلا أنه لم يستطع بعد النفاذ من ذلك السور كناية عن كثرة مناقب اللغة وعموم فضلها.

د . موسيقا القصيدة ونمط إيقاعها:

لا يمكن الحديث عن متعة للنص مع تجاهل موسيقاه، فالموسيقا هى البساط الذى يحمل المتلقى إلى أجواء العوالم الشعرية، فهى تنقل إليه الحالة وتسهم في إحساسه بالفكرة وتعايشه مع النص.

وقد جاءت هذه التجربة الشعرية للشاعر طلعت المغربي على بحر "الكامل التام" "متفاعلن"، وهو وزن يتلاءم مع غرض الشاعروقصيدته ، لما يجمع بين رقة

أسلوبه ، وفخامة معانيه، حيث دفاعه عن اللغة الفصحى ضد من يحاولون النيل منها.

أما قافيتها فقد اختار الشاعر لها الباء المضمومة روياً قوياً وواضحاً يعكس قوة ووضوح الصور التعبيرية في القصيدة، وربما كانت هذه القافية، والوزن الشعرى على بحر الكامل، وبعض أنماط التوقيع الصوتى التي نتجت عن ظاهرة التكرار في أسلوب الشاعر هى كل روافد موسيقا القصيدة، ومباعث إيقاعها، لا سيما وقد خلت من الظواهر الموسيقية القديمة، وملامح التجديد، ولكن على الجملة يمكن الحكم بجمال موسيقا القصيدة الناتج عن عذوبة ألفاظها وفخامة معانيها وشرف الغرض الذى نظمت له، ولا أدل على ذلك مما جاء فيها، قوله دفاعاً عن الفصحى:

لغتى لها لحن الوفاء عزفته نغمًا له كل المسامع تطرب

ولها المعانى الساحرات حروفها وبيانها .. وبديعها .. لا ينضب

حيث تبقى الألفاظ والمعانى والأوزان التقليدية هى الرافد الأهم في موسيقا الشعر وأنماط الإيقاع.

المبحث السادس

القصيدة السادسة

حول قيود اللغة العربية " للشاعر هاشم الرفاعي "

حول قيود اللغة العربية [١] " للشاعر هاشم الرفاعي " [٢]

يخاطب يوسف السباعي[٣]:

١- أشْعلتَ حرباً لم تضعْ أوزارَها ... تَرَكتْ بكلِّ صحيفة آثارها
٢- وحملْتَ حَمْلتَك الجريئةَ فانبرتْ ... أقلامُ من خاضوا وراءكَ نارها
٣- ورميت أختَ الضَّادِ منك بطعنةٍ ... كادتْ تدكُّ قويةً أسوارها
٤- وخرجتَ للتجديد تحملُ دعوةً ... أوحتْ لغيركَ أن يخوضَ غمارها
٥- جاءتْ فظاهرُها التقدُّمُ بينما ... أخفى البريقُ بجوفِها أخطارها
٦- وظللتَ تهتفُ بالتحرر زاعماً ... أن التحررَ قد يقيلُ عَثارها
٧- عجباً ... أتحيونَ التراثَ بقتلها ... وتقوِّمون بهدِمها مُنهارها
٨- ورأيتُ قوماً يُرهقونَ عُيوبها ... طلباً وراحوا يَطمسونَ نُضارها
٩- سفهتموها ظالمينَ وهكذا ... قد شاء أهلوها الغداةَ دمارها
١٠- والبعضُ قامَ مُشمراً عن ساعد ... يرمى بكلَّ عظيمةٍ أنصارها
١١- والأزهر المسكين يجرع ظلمكم ... وهو الذي قد ضمها فأجارها
١٢- ما ضرَّ من ملكوا أعِنَّةَ لفظها ... في درسهم أن يسبروا أغوارها
١٣- كانوا ومازالوا عليها قامة ... أنلوم في أن يدركوا أسرارها

١- ديوان هاشم الرفاعي (الأعمال الكاملة) – تحقيق ودراسة عبد الرحمن جامع الرفاعي – ص ٣١٧ – ط – مكتبة الايمان بالمنصورة – الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

٢- هاشم الرفاعي : اسمه : سيد جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي ، اشتهر باسم جده شيخ الطريقة الرفاعية ، وتعلم في الأزهر ثم دار العلوم ، وتوفى قبل أن يتخرج منها ، له عدة دواوين أشهرها " نسيم السحر " ، " آهات شديدة " ، [ينظر : ديوانه (المجموعة الكاملة) – جمع وتصحيح محمد حسن دريغش – ط مكتبة المنار بالأردن – الثالثة ١٩٨٥م ، وينظر: معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة ١٣٢/١٣ – ط دار بن حزم للطباعة ١٩٩٩ م] .

٣- سبقت ترجمته ص ٢٠٣٤ .

١٤- قلتم تشعبت المسائل عندها وشكا الصغار فحطموا أحجارها
١٥- لا تظلموا النشء الصغير فإنه ما كان يوما يكره استظهارها
١٦- أقسمتُ لم يشك الصغار وإنما قد ساء مزعوم القيود كبارها
١٧- أن المذاهب في الشريعة جمةٌ والفلسفات – كما ترى أطوارها
١٨- وكذا النحاةُ تباينت آراؤهم كل أراد طريقة واختارها
١٩- رفقا بعابرة القرون ورحمةً أتريد منها أن تفارق دارها
٢٠- إني أعيذك أن تكون إذا قضت يوماً ووراها الثرى جزارها

أولاً : مناسبة القصيدة :

كتبها الشاعر عام خمس وخمسين وتسعمائة وألف ونشرها لتبلغ يوسف السباعي وقد حدث أن هوجمت قصص " السباعي " ، وبخاصة قصة " إنى راحلة " لأنها عامية اللغة ، وكان مما وجه إليه من نقد أنَّ الكاتب العربي الذي يكتب لأكثر من مائة مليون عربي يجب أن يكتب بالفصحى ، ولا يحصر نفسه في دائرة العامية المصرية ، ولم يبال " يوسف السباعي " بهذا النقد ، بل كان ردُّه قاسيا وأكثر حِدَّة في دعوته ضد الفصحى وكان مما قال : " أنى لا أهتم مطلقاً بمبادئ اللغة وأسلوبي ليس في حاجة إلى محسنات لفظية ، والواقع أنَّ لغتنا العربية " سخيفة " ومجهدة ، وأنا على كل حال أعتبر اللغة وسيلة وليست غاية....."[١] .

ولا شك أن هذا الكلام أغضب الكثيرين من عشاق اللغة العربية فانبروا للرد على " يوسف السباعي " والدفاع عنها ، وكان من الذين ردُّوا عليه شعراً " هاشم الرفاعي " بهذه القصيدة " حول قيود اللغة العربية ".

١- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام – د/ سيد بن حسين العفاني – ج١ – ص٥٥٧ ، ط دار ماجد عبري للتوزيع والنشر ٢٠٠٤م .

ثانياً : أفكار النص :

جاءت القصيدة في عشرين بيتاً يطرح الشاعر فيها ثلاثة أفكار مختصرة ، الأولى : خطاب موجه إلى يوسف السباعي وكان يشغل رئيس المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية وأحد مهامه إحياء التراث ، فكيف يكون من أعداء اللغة الفصحى ؟ ، وقد وجه إليه الشاعر عتاباً قاسياً ونقداً لاذعاً ليس بسبب رأيه فقط وإنما لأنه سيكون سبباً لذيوع الدعوة للعامية بعدما حوربت من أحد أبنائها المسئولين عن حمايتها .

والثانية : إبراز دور المدافعين عن اللغة الفصحى لاسيما الأزهر الشريف الذي أخذ على عاتقه حماية اللغة والذود عنها ضد هذه الدعوة وتحمل – في سبيل ذلك – الكثير من الطعنات والسهام .

الثالثة : محاولة الشاعر تفنيد المزاعم والحجج الواهية التي تذرَّع بها أصحاب هذه الدعوة الهدامة ، مثل قصور اللغة الفصحى عن أداء احتياجات ذويها بعد تطوير العصر وتشعب المسائل والفلسفات وكذلك ما زعموه من صعوبة تعليمها للنشئ الصغير الذين غَذُوا واللغة الفصحى تحول بينهم وبين تحصيل العلوم .

ثالثاً: عرض أبيات القصيدة :-

استهل " هاشم الرفاعي " قصيدته بخطاب " يوسف السباعي" مهاجماً ومعاتباً يقول :

أشْـعلتَ حربـاً لـم تضـعْ أوزارَهـا تركـتْ بكـلِّ صـحيفة آثارهـا

وحملْـتَ حَمْلتَـك الجريئـةَ فـانبرتْ أقـلام مـن خاضـوا وراءكَ نارهـا

ورميـت أختَ الضَّـادِ منـك بطعنـةٍ كـادتْ تـدكُّ قويـةً أسـوارها

فهو يصور هجوم الرجل على اللغة الفصحى بمن يشعل فتيل الحرب وقد وضح دلالة هذا التصوير على ضخامة الجرم الذي ارتكبه " السباعي " وأيضًا ما

تلاه من مواجهات بين مؤيدين لهذه الدعوة ممن أرادوا السير على نهجه واستخفوا بالفصحى استخفافه بها ، وراحوا يطعنوها في جسدها ويصوبون سهامهم نحو معاقل حمايتها، وبين معارضين لهذه الدعوة ومدافعين عن اللغة ومناصرين لها .

واستمر الشاعر في هجومه على مخاطبه ، يقول :

٤- وخرجتَ للتجديد تحملُ دعوةً أوحتْ لغيركَ أن يخوضَ غمارها

٥- جاءتْ فظاهرُها التقدمْ بينما أخفى البريقُ بجوفِها أخطارها

٦- وظللتَ تهتفُ بالتحرر زاعماً أن التحررَ قد يقيلُ عثارها

وفى هذه الأبيات يبدى " هاشم الرفاعي " الفارق بين ظاهر دعوة " السباعي " ومؤيديه – وهى متشحة بشعارات التقدم والتجديد ومجاراة العصر – وبين باطنها تحمل أخطارًا شتى ليس هدفها اللغة فقط وإنما النيل من الدين والمبادئ والقيم الخاصة بأصحاب اللغة ، وقد استطاع الشاعر بهذه المفارقة أن يظهر أصحاب الدعوات الهدامة في صورة المنافقين الذين يختفون وراء شعارات براقة تدعى الحداثة والإصلاح في حين تبطن قلوبهم الحقد والفساد ، وهو هنا يسهم في كشف أمرهم ووضعهم أمام حقيقتهم .

ويمضى الشاعر في دفاعه عن الفصحى متعجباً من الهجوم عليها يقول :

عجباً .. أتحيونَ التراثَ بقتلها وتقوّمون بهدِمها مُنهارها

ورأيتُ قوماً يُرهقونَ عُيوبها طلباً وراحوا يَطمسونَ نُضارها

سفهتموها ظالمينَ وهكذا قد شاء أهلوها الغداةَ دمارها

والبعضُ قامَ مُشمراً عن ساعد يرمى بكلَّ عظيمةٍ أنصارها

بدأ الشاعر هذه الأبيات بالتعجب والاستفهام مجسداً مفارقة أخرى تتمثل في رؤيته لذلك الوضع المتناقض ، فكيف يمكن لمن يقوم على إحياء التراث أن يقدم على وأد لغته الحية ؟ ، في إشارة من الشاعر إلى عمل " يوسف

السباعي " رئيساً للمجلس الأعلى للآداب والفنون ، وهو مجلس معني بإحياء التراث ولا شك أنها إشكالية كبرى ومفارقة غريبة لطرفين متناقضين يصعب تلاقيهما .

وفى حسرة وألم يتحدث الشاعر عن رؤيته لأصحاب الدعوة ضد الفصحى وقد تنوعت أدوارهم ، فالبعض يظهر عيوبها طلباً للقضاء عليها ، والبعض يحاول أن يسفه كل معنى جميل فيها ، وآخرون أخذوا على عاتقهم محاولة النيل من أنصار الفصحى فلا تجد من يجلى جمالها ذوداً عنها .

وفى إطار حديث الشاعر عن أنصار الفصحى وما تعرضوا له جراء هذه النصرة تحدث الشاعر عن الأزهر الشريف النصير الأول لها ثم عاد بالوصف مخاطباً مهاجميها ، يقول :

والأزهر المسكين يجرع ظلمكم وهو الذي قد ضمها فأجارها
ما ضرَّ من ملكوا أعنة لفظها في درسهم أن يسبروا أغوارها[1]
كانوا ومازالوا عليها قامة أنلوم في أن يدركوا أسرارها
قلتم تشعبت المسائل عندها وشكا الصغار فحطموا أحجارها
لا تظلموا النشء الصغير فإنه ما كان يوماً يكره استظهارها

في البيت الأول صور الشاعر الأزهر الشريف جسداً جريحاً بفعل السهام الظالمة التي صوبها إليه دعاة العجمة والعامية جزاء ذوده عن اللغة الفصحى ونصرته لها ، ويبدو أن هذه الصورة التي رأى الشاعر عليها الأزهر الشريف هي التي جعلت الشاعر مشدوهاً متعجباً من هذا الظلم الذي تتعرض له اللغة العربية وحماتها من أبناء الأزهر العاشقين لها .

١- السبر: استخراج كنه الأمر . [لسان العرب – مادة سبر – ٤ / ٣٤٠] ، أغوارها : غور كل شيء قعرة [لسان العرب – مادة غور – ٥ / ٣٤]

وربما كانت حالة التعجب التي سيطرت على الشاعر هنا هي التي نبع منها تساؤله المشروع عن الأسباب التي منعت من يتجرأ على اللغة الفصحى من معرفة أسرارها وإدراك كنهها ، وكيف يكون سبر أغوار اللغة وأسرارها أسباباً لتخلفها وجمودها ؟

والحق إن الشاعر بهذه الصياغة لسؤاله يُعرِّض بأعداء الفصحى ويتهكم من ضعفهم وعدم قدرتهم على استيعاب ما بِلُغَتِهم من فيوضات زاخرة ، وقد عدَّ الشاعر هذا الضعف هو دافعهم إلى توجيه سهامهم إلى اللغة وإلى عشاقها العالمين بأسرارها وقد بدا أن توجيه الشاعر لتساؤله بطريق التعريض والتهكم حمل النقيض لهذه الصورة وقدم المظلوم الجريح – الأزهر الشريف – في صورة المنتصر للغة والمدرك لأسرارها .

ويفند الشاعر بعض المزاعم الواهية لأعداء اللغة كأن يتشدقون بقصور اللغة عن أداء بعض احتياجات ذويها وبخاصة بعد تطور العصر وتشعب المستجدات وكذلك الصعوبة التي يلاقيها النشء الصغير في تعلمها ، وقد عد الشاعر هذا القول ظلماً للناشئة العاشقين للغتهم والذين لم ينيبوا أعداء الفصحى للحديث بلسانهم .

ولم يكتف الشاعر بنفي شكاية الناشئة من اللغة الفصحى ، والتأكيد على حبهم لها، وإنما راح يدعم هذا التأكيد بالقسم ، ويقول :

أقسمت لم يشك الصغار وإنما قد ساء مزعوم القيود كبارها

إن المذاهب في الشريعة جمةٌ والفلسفات – كما ترى أطوارها

وكذا النحاة تباينت آراؤهم كل أراد طريقة واختارها

بدا الشاعر في هذه الأبيات والتي قبلها يتكئ على رؤية منطقية في العرض والرد لتفنيد حجج أصحاب تلك الدعوة ضد الفصحى ، وهو هنا يرى في تعدد

المذاهب الشرعية واللغوية مناخاً خصباً لثراء اللغة وغناها ، كما أنَّ اتساعها لكثرة الاختلاف والفلسفات دليل على عدم جمودها ، واستعدادها للتطور ومواكبة العصر.

والحق أن الرؤية المنطقية وأسلوب العرض والرد قد لا يتلاءم مع طبيعة الشعر وربما كان أقرب إلى النثر ، إلا أن موقف تفنيد المزاعم وإقامة الحجة قد يكون هو دافع الشاعر الذي سوغ لديه هذا الأسلوب .

وفى ختام قصيدته يصف " هاشم الرفاعي " اللغة الفصحى ويلقبها بعابرة القرون كناية عن حضارتها وملاءمتها لكل الأزمنة ، ثم هو يعود محدداً مخاطبه – يوسف السباعي – بقوله :

رفقاً بعابرة القرون ورحمة أتريد منها أن تفارق دارها

إنِّى أُعيذك أن تكون إذا قضت يوماً وواراها الثرى جزارها

لعل الشاعر حين وصف الفصحى بالقوة والملائمة لكل زمان أراد أن يعمق من دلالات الاستفهام الإنكاري الذي ساقه بعد ، إذ كيف لأحد من أبناء هذه اللغة أن يسعى لإهانتها والنيل من مكانتها إلى حد مفارقتها لديارها بعد أن رأى عبورها لهذه القرون الطويلة واستعدادها للتطور والمعاصرة ؟ .

كما أن التعبير بالديار هنا ربما يفيد تنبيه المخاطب إلى ما وقع فيه من العقوق في ديار اللغة التي يهاجمها بقسوة ، ومن ثم كان عليه أن يحترمها ويعرف فضلها لاسيما وأن الدار دارها .

وقد شهد البيت الأخير قدراً من التحول ، حيث بدا الشاعر مستعطفاً ومناشداً مخاطبه ببعض المحبة التي يكنها له وأيضاً متمنياً ألَّا يكون ذبح اللغة الفصحى والخلاص منها بيد أحد أبنائها المرجو منهم نصرتها ، ويؤكد هذه العاطفة المحبة من الشاعر لمخاطبه في ختام قصيدته ما جاء في بدايتها من إهداء العنوان "إلى

الأستاذ يوسف السباعي " ، فهو يحتفظ له رغم ما كان منه بلقب " الأستاذ " ولا شك أن هذا دليل على قدر من المودة والإجلال ، وكذلك على أدب جم من الشاعر الشاب الذي يعي ويحفظ قدراً وافراً لثقافة الاختلاف، وهو سلوك يفتقده الكثيرون في زماننا .

رابعاً : دراسة فنية للقصيدة :

رغم أن القصيدة ليست من مطولات الشاعر إلا أن بها العديد من الصور الفنية الجديرة بالدراسة والتحليل .

أ- ظواهر الأسلوب : ضمت القصيدة كثيراً من اللمحات الأسلوبية ، غير أن بعض هذه اللمحات كان من الكثرة بحيث يعد ظاهرة أسلوبية ومن هذه الظواهر :

١- كثرة المفارقات وصور التقابل :

تعد المفارقات وصور التقابل من أكثر ظواهر أسلوب الشاعر في القصيدة ، وقد أحسن " هاشم الرفاعي " استغلالها في تكثيف المعنى وإثارة ذهن المتلقي ومفاجأته ، ومن ثم لم تكن هذه الصور وسائل شكلية جزئية ، وإنما وسائل تعبيرية فنية، ومن أكثر ما يدل لذلك في القصيدة تلك المفارقة التي صورها بقوله عن الدعوة ضد الفصحى :

جاءت فظاهرها التقدم بينما أخفى البريق بجوفها أخطارها

أراد الشاعر بهذه الصورة توضيح الفارق بين صورة هذه الدعوة الآثمة مجسدة تتشح بشعارات التجديد ومواكبة العصر ، وبين صورة باطنها تحمل أخطاراً شتى ليس فقط على اللغة الفصحى إنما أيضًا على ذويها وعلى المبادئ والقيم والدين.

وقد وضح هنا كيف أسهمت المفارقة في إظهار الفارق بين الحالين ، وكذلك في تكثيف المعنى حيث بدا أصحاب الدعوة ضد اللغة في صورة المنافقين

يظهرون الخير وتبطن قلوبهم الحقد والكيد ، وهو معنى يصعب أداؤه دون صور التقابل .

ومن صور المفارقة التي وردت في القصيدة أيضًا تلك التي جاءت فى قول "الرفاعي " متعجباً :

عجباً : أتحيون التراث بقتلها وتُقوِّمون بهدمها منهارها

فما أبعد الهوة بين الإحياء والقتل ، والتقويم والهدم ، وأكثر ما يدعو للعجب ويحقق المفارقة والتناقض أن يصدر القتل والهدم ممن يرجى منه الإحياء والتقويم، وهو المعنى الذي أسهمت المفارقة في توضيحه ، ومن ثم تأكد أن الشاعر لم يكثر المفارقات في القصيدة لمجرد عرض الخطاب الشعري في صور متقابلة تلفت نظر المتلقي ، وإنما أيضًا لتكثيف المعنى في إطار تجسيد اتساع الهوة بين المتقابلين .

٢- **الالتفات** : من أكثر ظواهر الأسلوب وضوحاً لدى الشاعر في هذه القصيدة حتى أنه بدا قصيدته ملتزما أسلوب الخطاب في عدة أبيات ثم ما لبث أن تنقل بين التكلم والخطاب والغيبة إلى آخر القصيدة ، وذلك كأن يقول في ثلاثة أبيات متوالية:

ورأيت قوماً يرهقون عيوبها طلباً وراحوا يطمسون نضارها

سفهتموها ظالمين وهكذا قد شاء أهلوها الغداة دمارها

والبعض قام مشمراً عن ساعد يرمى بكل عظيمة أنصارها

فهو يتحدث في البيت الأول بأسلوب المتكلم مما يوحى بقرب الصورة وواقعيتها، وفى الثاني يخاطب أعداء اللغة فيعطى الخطاب معنى المواجهة التي تقوى الدلالة ، وفى البيت الثالث : يتحدث عن أعداء اللغة بصيغة الغائب ربما ازدراءً لهم وتقليلاً من شأنهم ، وقد تكرر هذا الانتقال بالضمائر في القصيدة بما

لا يدع مجالاً للشك في كونه ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر ، ومن ذلك قوله عن أبناء اللغة الذين لم يدركوا أسرارها :

كـــانوا ومـــازالوا عليهـــا قامـــة أنلـــوم فـــى أن يـــدركوا أســـرارها

قلـــتم تشـــعبت المســـائل عنـــدها وشـكا الصـغار فحطمـوا أحجارهـا

أقســمت لــم يشــك الصــغار وإنمــا قـد سـاء مزعـوم القيـود كبارهـا

فقد بدأ حديثه بصيغة الغائب ثم انتقل للخطاب ، وفى البيت الثالث متكلماً بالقسم ، وبعيداً عما يفيد هذا الالتفات من تنبيه المتلقي ، وثراء الصورة وما يضيفه للنص من تنوع صور الإيقاع فإنه يعكس الحالة الوجدانية للشاعر وهو قلق النفس حيران مما يحدث للغته على يد بعض أبنائها.

٣- **الاستفهام** : رغم أن القصيدة ليست من مطولات الشاعر إلَّا أنها حظت بأسلوب الاستفهام الذي تكرر فيها أربع مرات مما يعد ظاهرة أسلوبية ، وقد بدا واضحاً أن الاستفهام في القصيدة لم يكن لمجرد طلب العلم بشئ مجهول وإنما تجاوز هذا إلى معان أخرى يدركها المتلقي من السياق، ومن هذه المواضع الأربع قول الشاعر :

عجبـــاً أتحيـــون التـــراث بقتلهـــا وتُقَوِّمـــون بهـــدمها منهارهـــا

فقد جاوز الاستفهام هنا معناه الحقيقي إلى معنى التعجب ، وأبرز ما توحي به الصورة من المفارقة الداعية للتعجب ، وهى أن القائمين على إحياء التراث العربي هم الذين يتصدرون الدعوة لهدم اللغة العربية ، ومن مواضع الاستفهام في القصيدة أيضًا قوله في ختامها :

رفقـــاً بعـــابرة القـــرون ورحمـــة أتريـد منهـا أن تفـارق دارهـا ؟

فقد جاء الاستفهام يبرز رفض الشاعر وإنكاره إهانة اللغة والدعوة إلى تقويضها والاستعاضة عنها بغيرها لاسيما بعد أن أوضح صلاحيتها لكل الأزمنة، ويبقى

أن الاستفهام هنا بل في المواضع الأربعة من القصيدة برز أداة تسهم في إتمام الصورة والتعبير عن تجربة الشاعر وانفعالاته .

ب- الألفاظ والصورة التعبيرية :

يغلب على ألفاظ القصيدة السهولة والوضوح والبعد عن التكلف والتفاصح بالغريب ، حتى لتقرأ القصيدة فتفهم معانيها دون الرجوع إلى المعاجم اللغوية ، غير أن الملاحظ على ألفاظها مناسبتها للغرض الذي نظمت فيه وتعبيرها عن الفكرة المسيطرة على الشاعر الذي يرى الدعوة ضد العربية الفصحى فتنه تشعل الحرب بين محبي اللغة – وهو واحد منهم – وأعدائها الذين تزعموا هذه الدعوة وتولوا كبرها .

وبالنظر للمعجم اللفظي للقصيدة نجده يوحى بمعاني القوة والقسوة والقتال ، مناسبة للتعبير عن هذه الحرب المشتعلة بين الطرفين المتناقضين مثل ألفاظ (أشعل – حرب – أوزار – جريئة – نارها – أسوارها – يخوض – غمار – هدم – دمارها – يطمسون – سفهتموها – ظالمين – مشمراً – يجرع – أجار – أغوارها – فحطموا –القيود – الثرى – جزارها) ، ويستثنى من ذلك أبيات قليلة لا تدل ألفاظها على معاني القوة والقسوة وهى تلك الأبيات التي يستعطف فيها الشاعر أصحاب الدعوة ضد اللغة ، أو تلك التي يتحدث فيها عن أبناء اللغة المدافعين عنها.

ولعل أكثر ما يؤكد هذه الملاحظة على المعجم اللفظي للقصيدة ألفاظ قافيتها، فهي عشرون لفظة دلت ثلاثة فقط على غير ذلك ، ولا شك أن المعجم اللفظي للقصيدة جدير بإعطاء صورة حقيقية لمعانيها .

جـ – الخيال والصورة الشعرية :

تعد الصورة الشعرية أحد أسرار قيمة هذه القصيدة ودلالتها ، حيث ضمت العديد من الصور الشعرية التي ساقها " هاشم الرفاعي " لتعميق الدلالة على الغاية من النص والتي قد لا يظهر عمقها إلا حين يستخدم الصورة والخيال .

ومن هذه الصور الخيالية تلك التي جاءت في قوله :

رفقـــاً بعـــابرة القـــرون ورحمـــة أتريـد منهـا أن تفـارق دارهـا ؟

فهي صورة استعارية تهدف إلي توضيح فداحة الجريمة التي ارتكبها مخاطَبُ الشاعر " يوسف السباعي" – في حق اللغة الفصحى – التي شبهها الشاعر بامرأة ضعيفة طعنها " السباعي" دون رحمة أو شفقة ، وقد أسهم تعبير الشاعر بكلمتي " رميت ، وأخت الضاد " فى تمام هذا التشبيه وتعميق دلالته ، إضافة إلي ما تفيده كلمة " رميت " دون " طعنت " من أن الرامي حين هاجم اللغة كان بعيداً عنها ، ولم يقترب ولم يعرف أسرارها رغم أنه من أهلها ، فهو بُعْدٌ معنوي إذ لو دنا منها الرامي ورأى جمالها الساحر لكان أبعد الناس عن المساس بها .

ومن صور النص المركبة التي أعمل الشاعر فيها خياله تلك التي رسمها للأزهر الشريف في مقدمة المدافعين عن الفصحى بقوله :

والأزهـــر المســـكين يجـــرع ظلمكـــم وهـو الـذي قـد ضـمها فأجارهـا

والمعلوم أن الأزهر هو النصير الأكبر للغة الفصحى التي قام البعض برميها ورمى أنصارها ، وقد شخصه الشاعر في صورة استعارية تبعث على تعاطف المتلقي ، وتثير مشاعر الأسى لذلك الصرح الكبير الذي بدا أمام الضربات المتتالية لأعداء اللغة مسكينا يتجرع الألم والظلم دون ذنب فعله سوى صموده في وجه أعداء اللغة ، ومحاولته رفع الظلم عنها ، وقد ضم الشاعر لصورته التعبير بالكناية في كلمة (ضمها) التي أفادت قوة احتواء الأزهر للغة وذوده عنها ، وغير خفي ما أفادته الصورة من تأكيد الدلالة .

د- البنية الإيقاعية للقصيدة :

حمل أبعاد هذه التجربة الشعرية بحر الكامل (متفاعلن) ، وهو بحر قال عنه الدكتور " عبده بدوى " : " وزنه مترع بالموسيقا ويجمع بين الفخامة والرقة ، ولهذا لا يتناسب مع الحكمة والفلسفة "[١].

وحين نعلم هذه الصفات عن بحر الكامل نعلم أن فخامته تناسب الغرض الشعري لهذه القصيدة حيث تصوير إيقاع الحرب المشتعلة بين أعداء اللغة وبين أبنائها المدافعين عنها ، وقد نجح بحر الكامل في تشكيل الجمل الموسيقية المعبرة عن هذه التجربة ، كما أسهم في بنية الإيقاع اختيار " هاشم الرفاعى " لحرف الراء القوى روياً ، ووصله بالهاء المهموسة ثم جعل الألف لهما خروجا ليتم للقصيدة قافية قوية تعكس قوة صورتها التعبيرية .

ورغم اكتمال البنية الإيقاعية للقصيدة إلا أنها فقيرة من حيث الظواهر الموسيقية، غير أننا لا نعدم بعض صور البناء الإيقاعي كالتتميم [٢] في قول "هاشم الرفاعى " :

سفهتموها ظالمين وهكذا قد شاء أهلوها الغداة دمارها

فقد أتى الشاعر بلفظة (ظالمين) زائدة لتتمة الوزن فزاد بها المعنى جمالا واكتمالا لما فيها من معنى التأكيد على ظلم وطغيان أصحاب الدعوة ضد الفصحى ، وهى زيادة حسنة ولها جذور في الشعر القديم ، حيث وردت بنصها في قول ابن المعتز يصف خيلاً :

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراعٌ وأرجل[٣]

١- دراسات في النص الشعري – د/ عبده بدوى ، ص٥٦ ، ط – دار الرفاعي – الرياض ١٩٨٤م .

١- التتميم : هو أن يأتي الشاعر بلفظة أو تركيب يُتم به الوزن فيزداد المعني اكتمالاً ، ويري ابن رشيق أنه الوجه الحسن للحشو [ينظر : "موسيقا الشعر العربي" للدكتور / حسنى عبدالجليل ، ج١ ، صـ٢٠٩ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م] .

٢- ينظر : دراسات في النص الشعري – د/عبده بدوى ص ٥٦ ط – دار الرفاعي – الرياض ١٩٨٤ م .

ومن الصور الإيقاعية النادرة في هذه القصيدة أيضًا : التكرار ، فلا شك أنه من أهم أنماط التوقيع الصوتي لما يعطى البيت من تقسيم وتشطير داخلي قد يعمد إليه الشعراء ، ومن التكرار في هذه القصيدة قول الشاعر :

وظللـــت تهتـــف للتحـــرر زاعمـــاً أن التحـــرر قـــد يقيـــل عثارهـــا

فقد تكررت كلمة (التحرر) بلفظها ومعناها فخرجت من التجنيس الذي يكون بتكرار اللفظ مع اختلاف المعنى ، غير أن المتفق عليه ما يضيفه كل منهما للإيقاع .

أما الظاهرة الإيقاعية الأهم والأكثر وضوحاً في هذه القصيدة فهي "الالتفات" أو التنقل بالضمائر من المتكلم إلى المخاطب ومنهما إلى الغيبة وهكذا ، وقد تكررت كثيراً في القصيدة على ما أسلفت في الحديث عن ظواهر الأسلوب، وغير خفي أثر هذا الانتقال على البنية الموسيقية للقصيدة ، وما أضافه إلى موسيقاها من غناء ورواء .

وهكذا نجد أن الإيقاع في النص قد شكل محوراً دلالياً كان له إسهامه الدلالي الذي قوى من إيحاءات الألفاظ والتعابير كما كان إسهامه في نقل التجربة بكل أبعادها .

المبحث السابع

القصيدة السابعة

" فضل اللغة العربية " للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين "

" فضل اللغة العربية [1] " للعلامه الشيخ محمد الخضر حسين"

١- شـبيهان : الهـلال إذا تهـادى وفكـرُ بـاتَ يرتـادُ السَّـدادا
٢-بنـاتُ الفكـرِ آبـدةُ ولـولا عنـانُ القـولِ لـم تُسـلسْ قِيـادا
٣- رعـى اللهُ الأديـب يـرومُ معنـى فيسـعدُه البيـانُ بمـا أرادَا
٤- أبجلـه ولـو لـم يـأو ظـلاً بنـى العـيشُ الأنيـقُ بـه وشـادا
٥- فهـاتِ السيفَ يخطر فـي مضاء وخـلِّ الغِمْـدَ عنـدكَ والنِّجـادا
٦- وينـزعُ بـي إلـى الآداب وجـد إذا قلـتُ اشـتفى بالوصـلِ زادَا
٧- فأنسى " معبداً " و" عُرَيْبَ " دهراً ولا أنسـى " البـديعَ " ولا " العمـادَا "
٨- وأسـلو الـروضَ والورقـاءُ تشـدو بـه والغيـثُ حـاكَ لـه بجـادَا
٩- ولا أسـلو الطـروس تـدورُ فيهـا رحـى البحـثِ ابتكـاراً وانتقـادا
١٠- ولـم أنـضُ القريحـة فـي نسـيبٍ ولا عَـذْلاً شـكوتُ ولا بُعـادا
١١- فمـا أهـوى سـوى لغـةٍ سَـقَاها قـريشٌ مـن بـراعتِهم شِـهادا
١٢- أداروا مـن سَلاسـتها رحيقـاً وهَـزُّوا مـن جَزالتهـا صِـعادا
١٣- وطوَّقهـا كتـابُ الله مَجْـداً وزاد سـنَا بَلاغَتِهـا اتِّقـادا
١٤- تصـيد بسـحر منطقهـا قلوبـاً تحـاذر كالجـآذر أن تُصـادا
١٥- قنـت حِكَمـاً روائـعَ لـو أعـارت سـنَاها النـارَ لـم تلـدِ الرَّمـادا
١٦- سـرتْ كـالمزن يحيـى كـلَّ أرض ويبهجُهـا وهـاداً أوْ نجـادا
١٧- ومـا للهجـة الفصـحى فخـار إذا لـم تمـلأ الـدنيا رشـادا
١٨- وراعَ حُلـى الفصـاحة غيـر عُـرْبٍ فحثُّـوا مـن قـرائحهم جيـادا
١٩- تخـوضُ بيانهـا الفيـاضَ طَلْقـاً وكانـت قبلـهُ تـردُ الثَّمـادا

١- من ديوان " خواطر الحياة " للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين ، صـ ٨٢ – ط شبكة المعلومات الدولية موقع :[www.islameb.net] .

٢٠- وكم ضاهى(ابن فارس) وهو يورى زنـــادَ الشـــعر وائـــلَ أو إيَـــادا
٢١- أتاهـا العلـمُ يرسُـفُ فـي كسـادٍ وخَطْـبُ العلـمِ أنْ يلقـى كسـادا
٢٢- فـألقى مـن معاجمهـا عُبابـاً غزيـرَ النبـع لا يخشـى نفـادا
٢٣- فأودعهـا نفائسـه وأضْـحى شـعار العلـم إعرابـاً وضـادا
٢٤- عزيـرى مـن زمـانٍ ظـلَّ يَجْنـى علـى الفُصْـحى ليرهقهـا فسـادا
٢٥- حثـا فـي روضـها الزاهـي قتامـاً وأنبـتَ بـين أزهُرهـا قتـادا
٢٦- أجالـت طرفَهـا فـي كـل وادٍ فلـم تـر فـي سـوى مصـر مـرادا
٢٧- فتلـك معاهـدُ العرفـانِ تـدنى إلـيهم خيـرَ مـا يبغـون زادا
٢٨- وهـذا مجمـعٌ يحمـى تـلاداً ويبنـى طارفـاً يحكـى التـلادا
٢٩- كـأن عكـاظ عـاد بهـا اشـتياقٌ إلـى الفصـحى فكـانَ لهـا مَعَـادا
٣٠- جـرى مـاءُ الحيـاةِ بوجنتيهـا فهنَّأنَـا اليراعـة والمِـدادا
٣١- وقلنـا للمنـابر : ذكرينـا عليـاً حـين يخطُـب أو زيـادا
٣٢- فيـا لغـة النبـي سـقاكِ عهـدٌ مـن الإصـلاح ينـتظم الـبلادا
٣٣- فمـا مـن حاجـةٍ للعلـم إلَّا يقـيم لهـا بحكمتـه سِـدادا
٣٤- يصـون هدايـةَ الله اعتـزازا بهـا وأضـاعها قـومٌ عنـادا
٣٥- تـراءى الزيـغ يـنفُضُ مذرَويْـه ويمسـحُ عـن لواحِظِـه رُقـادا
٣٦- ومـن يصف الهدى مُلِئتْ يداه نجاحـاً كلَّمـا اسـتورى زنـادا

أولاً : مناسبة القصيدة :

في نهاية القرن التاسع عشر راجت الدعوة الآثمة التي أرادت النيل من اللغة العربية بمختلف الحيل والأساليب تحت ستار الرغبة في الإصلاح ومسايرة تطور الزمن ، وكان ممن نهض للتصدي لهذه الدعوة والدفاع عن اللغة الفصحى الشيخ " محمد الخضر حسين " وفى هذا الإطار جاءت هذه القصيدة تبين فضل اللغة العربية ورفعة مكانتها وتذكر أبنائها بحضارتها واستيعابها ، وصلتها بالكتاب المعجز الذي تكفل بحمايتها .

ثانياً : أفكار القصيدة :

دار النص حول عدة أفكار متداخلة حيث يوجز الشيخ الحديث عن الفكرة ونجده أحياناً يعود إليها غير أن ذلك لم يكن بمعزل عن فكرته الرئيسة في القصيدة وهى بيان فضل اللغة الفصحى ووفائها في ترجمة أفكار أبنائها والتعبير عن المعاني التي تجول بخواطرهم لاسيما الشعراء الذين أمدتهم الفصحى برائع نظمها وبديع بيانها .

ومن الأفكار التي أبرزها الشيخ في قصيدته عشقه الشخصي للغة الفصحى، والبيئة القديمة وبعض الشخصيات التراثية التي كان للغة أثر بالغ في نتاجها اللغوي والأدبي في الكتابة والخطابة .

ومن هذه الأفكار أيضًا بيان صلة اللغة الفصحى بالإسلام حين شرفها الله عز وجل باختيارها لغة القرآن الكريم ، وأثر هذه الصلة في حفظها وحمايتها ، ودور الأزهر الشريف والمجتمع اللغوي في ذلك .

ومن أفكار النص أيضًا تأكيد الشيخ على سعة اللغة العربية وعالميتها ، وتأثيرها في غير العرب لاسيما في الجانب العلمي الذي كان التقدم العربي فيه

مطية للازدهار الغربي ، وغير خفي ما في ذلك من رد على أصحاب الدعوة الآثمة بضيق اللغة وعدم وفائها بمصطلحات العلم الحديث .

ثالثاً: عرض تحليلي لأبيات القصيدة :

استهل الشيخ قصيدته بأسلوب مختلف أدْعَى إلى تشويق المتلقي واستمالته ، يقول :

شـــبيهان : الهـــلال إذا تهـــادى وفكـــرُ بـــاتَ يرتـــادُ السَّـــدادا

فلا شك أن المتلقي حين يسمع استهلال الشاعر بكلمة " شبيهان " تتطلع نفسه وتتشوق إلى معرفتهما ، ثم يكمل الشاعر البيت فإذا هما الهلال حين يتهادى في السماء ، والفكر المتعمق حين يرتاد السداد والاستقامة ، فالشاعر يراهما شبيهان في مستوى واحد ، فكلاهما يضئ الكون ويمنحه جمالاً ساحراً ، ورغم أنهما يُحلِّقان في أجواء عالية إلا أن نفعهما قريب يعم البشرية .

ويبدو أن الشاعر قد استهل قصيدته ببيان قيمة الفكر لينطلق منه إلى وسيلة التعبير عن الأفكار وهى اللغة ، يقول :

بنـــاتُ الفكـــرِ آبـــدةُ ولـــولا عنـــانُ القـــولِ لـــم تُســلسْ قِيـــادا[١]

رعـــى اللهُ الأديـــب يـــروم معنـــى فيســـــعده البيـــــان بمـــــا أراد

أُبجِّلـــه ولـــو لـــم يـــأو ظـــلا بنـــى العـــيشُ الأنيـــقُ بـــه وشـــادا

فهـات السـيف يخطـر فـى مضـاء وخـــلِّ الغِمـــدَ عنـــدك والنجـــادا [٢]

١- آبدة : يقال للكلمة الوحشية آبدة وجمعها أوابد . [لسان العرب – مادة أبد – ٣ / ٦٨]

٢- النجاد : نجاد السيف من الرجل حمائله . [لسان العرب ٣ / ٤١٣]

يرى الشاعر أن الأفكار عجيبة غريبة قد تسبح في فضاءات واسعة لا حدود لها ، فلا يكبح جماحها ويقربها للمتلقي سوى التعبير عنها باللغة السهلة التي تجلى ما تحويه هذه الأفكار من معاني .

والشاعر في هذا المقام يذكر الأدباءَ فَهُم أقدرُ الناسِ على أن يتخذوا من أدبهم مظهراً لبث مشاعرهم ، ويجعلون منه مرقاة يسمون بها إلى آفاق الإبداع، ويترجمون ما يعجز غيرهم عن التعبير عنه ، فكثيراً ما يكون سبباً للسعادة وإن لم يشعروا بها ، ولا شك أن هذه المقدرة لدى الأدباء هي الباعثة على تبجيلهم وتقديرهم ، وقد بدا واضحاً ما تحويه الأبيات من التأكيد على أهمية الصلة بين اللفظ والمعنى لجودة العمل الأدبي .

ويؤكد العلامة الشيخ عشقه للأدب والأدباء ، يقول :

وينـــزع بـــي إلـــى الآداب وجـــد اذا قلـــت اشـــتفى بالوصـــل زادا
فأنسـى " معبـداً " و" عريـب " دهـراً ولا أنســى " البــديع " ولا " العمــادا "
وأســلو الــروض والورقــاءُ تشــدو بـــه والغيـــث حـــاك لـــه بجـــادا
ولا أســلو الطــروسَ تــدور فيهــا رحـــى البحـــث ابتكـــاراً وانتقـــادا

يبدو أنَّ عشق الآداب ضارب بجذوره فى عمق ذات الشاعر ، بل هو وجد لا يطفئه الوصل وإنما يزيده لهيباً وتوقداً ، ولقوة عشق الشاعر للأدب نراه يصر على تقديم مبدعه على متلقيه وإن كان هذا المتلقي مشاركاً في الإبداع ، وفى هذا المقام يذكر الشاعر عدة شخصيات تراثية هى " معبد " و " كان من أحسن الناس غنـــاءً وأجـــودهم خلقـــاً وهـــو فحـــل المغنيـــين ، وإمـــام أهـــل المدينـــة في الغناء ..." [١] ، و " عُريب " و " كانت مغنية نهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الطرب وإتقان الصنعة ومعرفة بالنغم و

١- " الأغاني " لأبى الفرج الأصفهاني – ط ١ ، صـ ١٢ ، " مرجع سابق " .

الأوتار ...[١] " ، و " البديع " وقد عَنَى به " بديع الزمان الهمذاني " صاحب بكتاب " المقامات " الشهير و " العماد " الأصفهاني الذي له من الشعر والرسائل ما يضيق المقام بوصفه ..[٢]" .

وفى هذه الأبيات رمز الشاعر بالشخصيتين الأولتين لبلوغ الغاية في الفن والقدرة على الامتناع ورغم ذلك فإنه قد ينساهما زمناً طويلاً لأنهما متلقيان أولاً للشعر قبل أدائه ، ثم رمز الشاعر بالشخصيتين الأخرتين لتراثنا الأدبي الممتع الغنى ولذلك فهو أبدا لا ينساهما ، وهنا تبدو المفارقة وتلح الفكرة التي يصر عليها الشاعر في تقديمه الشعر على الغناء ومنشئ الأدب على متلقيه وإن كان هذا المتلقي مشاركاً في عملية الإبداع .

وفى هذه الأبيات أيضًا يؤكد الشاعر ، عشقه للغة العربية وتمتعه بآدابها متعة لا تدنو منها متعة أخرى ، فنجده يرسم صورة للطبيعة الساحرة التي يهيم بها الشعراء وهو منهم ، غير أنه قد ينسى هذه الصورة وهذا السحر ولا ينسى الأوراق والكتب التي تحمل تراث أمته .

وقد استطرد الشاعر يوضح عشقه للغة العربية غير أنه أراده متفرداً ومختلفاً عن غيره من الشعراء ، يقول :

ولم أنضُ القريحة في نسيبٍ ولا عَذْلاً شكوتُ ولا بُعادا
فما أهوى سوى لغة سَقَاها قريشٌ من براعتهم شهادا
أداروا من سَلاستها رحيقاً وهَزُّوا من جَزالتها صعادا[٣]
وطوَّقها كتاب الله مَجْداً وزاد سَنَا بَلاغَتِها اتِّقادا

٢- المرجع السابق جـ ١ ، صـ ٣٤٨.

١- ينظر : " وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان " لابن خُلَّكان – جـ ٥ ، صـ ١٤٨ ط دار صادر – بيروت – ١٩٧٨ م .

٢- صعادا : جمع صَعْده وقيل هى نحو من الآلة والآلة أصغر من الحربة [اللسان جـ ٣ – ص ٢٥١] .

تصـــيدُ بســـحر منطقهـــا قلوبـــاً تحـــــاذر كالجـــــآذر أن تُصـــــادا
قنـــت حكمـــاً روائـــع لـــو أعـــارت ســـناها النـــار لـــم تلـــد الرمـــادا
ســـرتْ كـــالمزن يحيـــى كـــلَّ أرض ويُبهجُهـــــا وهـــــاداً أوْ نِجـــــادا [١]
ومـــا للهجـــة الفصـــحى فخـــار إذا لـــــم تمـــــلأ الـــــدنيا رشـــــادا

قد يعشق الشاعر غرضاً معيناً فيجهد قريحته في طلبه لكن الشيخ هنا ينفى عن نفسه أن يعشق أغراض الشعر، وإنما يجعل غايته وهواه ذات اللغة التي بلغ فيها العرب الأُول – لاسيما قريش – من البراعة ما جعل من ألفاظها السهلة رحيقاً يشربونه ويسقونه أبنائهم ، ومن ألفاظها الجزلة أدوات للحرب والقتال .

كما أنه يشير إلى القرآن الكريم أهم أسباب حماية اللغة ورفعتها، وسبب إعجاز بلاغتها التي استمالت قلوب أرباب الفصاحة والبيان فصاغوها حكماً خالدة يبقى الاستدلال بها ولا تنطفئ جذوتها .

وفى آخر الأبيات بدت رؤية الشاعر لعموم فضل اللغة الذي يملأ الدنيا كماء المطر يسقى جميع الأرض العطشى مرتفعة كانت أو منخفضة ، فيروى غلتها، ويحيى مواتها ، ويدخل عليها البهجة والسرور .

وينتقل الشاعر في أبيات أخرى من قصيدته إلى تأثير اللغة على غير العرب حين رأوا إبداعاتها ، يقول :

وراعَ حُلـى الفصـاحة غيـر عُـرْبٍ فحثُّـــوا مـــن قـــرائحهم حيـــادا
تخـــوضُ بيانهـــا الفيـــاضَ طَلْقـــاً وكانـــت قبلـــهُ تـــردُ الثَّمـــادا[٢]

١- وهادا : جمع وهد ، وهى الهوة تكون في الأرض [اللسان ٣ / ٤٧٠] ،
– نجادا : جمع نجد وهى ما ارتفع عن الأرض واستوى [اللسان ٣ / ٤١٣] .
٢- الثماد : الماء القليل [اللسان ٣ / ١٠٥] .

وكم ضاهى(ابن فارس)[1]وهو يورى زنـــاَد الشـــعر وائـــلَ أو إيَـــادا
أتاهــا العلــمُ يرسُــف فــي كســادٍ وخطــبُ العلــم أن يلقــى كَسَــادا
فــألقى مــن معاجمهــا عبابــا غزيــر النبــع لا يخشــى نفــادا
فأودعهــا نفائســه وأضــحى شــعار العلــم إعرابــاً وضــادا

يبدى الشاعر تلك المكانة الرفيعة التي بلغتها اللغة حتى يكون لها بالغ التأثير ليس فقط في أبنائها ولكن أيضًا في غير العرب الذين راعتهم إبداعات اللغة العربية ، وأثرت في قرائحهم فجادلوا محاكاة ذلك الإبداع في كثير من فنون لغتهم حتى بدا واضحاً ذاك التأثير .

وفى الأبيات يضرب لنا الشاعر مثلاً للمتأثرين بالعربية من غير العرب حين يستلهم من التراث شخصية (ابن فارس القزويني) الذي يقول عنه الإمام "الذهبي ": " كان رأساً في الأدب ، بصيراً بفقه مالك ، مناظراً متكلماً على طريقة أهل الحق ، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين – جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر ..." [2].

ويوضح الشاعر أنه رغم أصله غير العربي إلا أن أدبه يضاهى أبناء العربية ، وربما يفوقهم فصاحة وبلاغة .

كما يوضح الشاعر أيضاً فضل اللغة على العلم حين يأتيها في صورة معلومات جامدة فتكسوه اللغة أسلوباً وتعبيراً فيصبح بها بحراً غزير النبع ، إذ كيف يتضح العلم دون لغة التعبير ؟ ، وغير خفيّ ما في ذلك من

٣- ابن فارس : هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، إمام لغة وأدب ، مختلَفٌ في تعيين وطنه وأكثر العلماء على أن أصله من قزوين ، وتوفى بالري وإليها نسبته عام ٣٩٥ هـ – ١٠٠٤ م . [سير أعلام النبلاء – ص ١٧ – ط – مؤسسة رسالة – بيروت – التاسعة ١٩٩٣ م] .

١- " سير أعلام النبلاء " ص ١٧ ، و ص ١٠٤ – مؤسسة الرسالة – ط – بيروت – التاسعة ١٩٩٣ م .

رد الشاعر على دعوى ضيق اللغة وعدم قدرتها على التعبير عن مخترعات العلم الحديث.

ولعل هذا المعنى يكون البداية الحقيقية للغرض الرئيس لدى الشاعر من قصيدته ، ثم هو يستطرد في دفاعه عن الفصحى ، يقول :

عزيــرى مــن زمــانٍ ظــلَّ يَجْنــى علـــى الفُصْـــحى ليرهقهـــا فســـادا

حثــا فــى روضــها الزاهــى قتامــا وأنبـــت بـــين أزهُرهـــا قتـــادا[1]

أجالـــت طرفهـــا فـــي كـــل واد فلــم تــر فــي ســوى مصــر مــرادا

فتلـــك معاهـــد العرفـــان تـــدنى إلـــيهم خيـــر مـــا يبغـــون زادا

وهـــذا مجمـــعٌ يحمـــى تـــلادا ويبنـــى طارفـــا[2] يحكـــى الـــتلادا

كــأن عكــاظَ عــاد بهــا اشــتياقٌ إلـــى الفصـــحى فكـــان لهـــا مَعـــادا

يسوق الشاعر عدة كنايات عن هذه الدعوة الآثمة ضد الفصحى حين يسأل : من يعذرني في أمر هذا الزمان الذي يسئ للغة ويطفئ روضها ويمسح بالغبار الأسود زهورها ؟ ثم هو يعاود الحديث عن القرآن الكريم أهم أسباب حماية اللغة والذود عنها كما يذكر في ذلك دور مصر ومؤسساتها العلمية واللغوية وفى مقدمتها ، (المجمع اللغوي) ويرى الشاعر صلة وثيقة وشبهاً كبيراً بينه وبين (سوق عكاظ) ولاشك أن هذا التشبيه يؤكد توجه الشاعر نحو استلهام التراث للتأكيد على فكرته ، كما يؤكد ذلك أيضًا قوله موضحاً فضل اللغة في نهاية قصيدته :

١- قتادا : نبات صلب له شوك يخرج من الصمغ ويطلق على الشئ الصعب المنال [اللسان : ٣ / ٣٤٢] .

٢- الطارف من المال : المستحدث وهو خلاف التالد والتليد . [اللسان ٩ / ٢١٣] .

جـــرى مـــاء الحيـــاة بوجنتيهـــا فهنأنـــــا اليراعـــــة[١] والمـــــدادا
وقلنـــــا للمنـــــابر : ذكّرينـــــا عليـــاً حـــين يخطـــب أو زيـــادا
فيـــا لغـــة النبـــي ســـقاكِ عهـــدٌ مـــن الإصـــلاح ينـــتظمُ الـــبلادا
فمـــا مـــن حاجـــة للعلـــم إلا يقـــيم لهـــا بحكمتـــه ســـدادا
يصـــون هدايـــةَ الله اعتـــزازاً بهـــا وأضـــاعها قـــومٌ عنـــادا
تـــراءى الزيـــغ يـــنفض مذرويـــه[٢] ويمســـح عـــن لواحظـــه رُقـــادا
ومـــن يصـــف الهـــدى ملئـــت يـــداه نجاحـــاً كلمـــا اســـتورى زنـــادا[٣]

يبرز الشاعر حالة الحراك التي قدمها المجمع اللغوي الذي أحيا موات اللغة وأجرى ماء الحياة في أوصالها حتى ليقدم الشاعر بذلك التهنئة للمداد والأقلام التي تسجل هذا الحراك وتخطه تعريباً وتسجيلاً .

ويبدو أنْ كان ذلك باعثاً لاستلهام الشاعر لشخصيات تراثية أخرى ، فنراه يخاطب اللغة داعياً لها بعهد إصلاح يفيدها زهاء وزيادة ونماء متذكراً عهود أشهر الخطباء : الخليفة على بن أبى طالب " رضى الله عنه " و " زياد بن أبيه " خطيب بني أمية ، فالشاعر يرى أن قوة اللغة العربية ليست فقط تقيم حاجزاً بينها وبين الزيغ والباطل من مثل هذه الدعوات الآثمة ضد اللغة الفصحى، وإنما أيضا تصون الدين التي جاءت وعاءً لأفكاره ، وحين تكون اللغة على هذه الحال من القوة والزهاء فلا شك أنها تفي بحاجة العلم وتقدم المصطلحات لمخترعاته الحديثة .

٣- اليراعة : القصبة التي ينفخ فيها الراعي فتصدر نغماً . [اللسان ٨ / ٤١٣]

١- تقول العرب جاء ينفض مذروريه وهما منكباه . [اللسان ٤ / ٢٨٢]

٢- الزناد : جمع زند وهو العود الأعلى الذي يقتدح به النار . [اللسان ٣ / ١٩٦]

رابعاً : دراسة فنية للقصيدة :

أ- ظواهر أسلوب الشاعر :

قارئ قصيدة الشيخ " محمد الخضر حسين " يلحظ أنه يتميز بالعديد من ميزات الأسلوب ، غير أن ميزتين رئيستين شكلتا ظاهرتين في أسلوبه هما : لجوئه إلى التكرار إلحاحاً على فكرته ، ولجوئه إلى استلهام التراث إسهاماً في توضيحها .

١- **التكرار** : وأول ما يجدر توضيحه أنه لم يكن عيباً في أسلوب الشاعر وإنما توقيعاً صوتياً وموسيقياً أسهم في تأكيد المعاني المرادة لديه في قصيدته .

وقد كثر التكرار في القصيدة حتى طال كلمة القافية مثل تكرار كلمة " سدادا " في البيت الثالث ، والرابع والثلاثين ، وكذلك كلمة القافية " نجادا " بين البيت الخامس والسادس عشر ، رغم وضوح ثراء المعجم اللفظي لدى الشاعر وعدم إلحاح الحاجة إلى التكرار .

كما جاء التكرار لبعض الأساليب مثل تكرار الفعل بين النفي والإثبات في قوله :

فأنسى " معبداً " و " عُرَيْب " دهراً ولا أنسى البديع ولا " العمادا "

وأسلو الروض والورقاء تشدو به والغيث حاك له بجادا

ولا أسلوا الطروس تدور فيها رحى البحث ابتكاراً وانتقادا

وكذلك جاء التكرار لبعض الكلمات المفردة في القصيدة وهو كثير بحيث لا يعوذنا إلى تمثيل .

٢- **استلهام التراث** : وقد تنوع الاستلهام لدى الشيخ " محمد الخضر حسين " في هذه القصيدة بين استدعائه شخصيات وأماكن تراثية مثل " معبد وعريب ، وبديع الزمان الهمذاني ، والعماد الأصفهاني ، وابن فارس ، وعلى بن أبى طالب ، وزياد بن أبيه " على الترتيب الذي جاء في القصيدة .

وأما استدعائه المكان ففي تشبيه المجمع اللغوي في مصر وما يدور فيه من مناقشات لغوية " بسوق عكاظ " في الجاهلية وما كان فيه من منتديات أدبية .

وغير خفي ما يحدثه الشاعر بهذا الاستلهام من صور تقابلية ومناظرات تحقق كثيراً من الأهداف فهي تبين للمتلقي هيام الشاعر الدائم الذي لا ينقطع بتراث أمته كما أنها تبدى ما في هذا التراث من غنى وتنوع في الفنون والآداب وكذلك تؤكد عشق الشيخ " محمد الخضر حسين" للغة العربية وتمتعه بها متعة تفوق أيَّ متعة أخرى .

ب- الألفاظ والصورة التعبيرية :

لم يقتصر عشق التراث من قبل الشاعر على استلهامه الشخصيات والأماكن التراثية ولكن أيضًا يلحظ المتلقي ذلك عنده في الألفاظ حيث استدعائه لكثير من الكلمات العربية القديمة والأساليب التعبيرية التي تعكس بوضوح عشق الشاعر لتراث أمته ولغتها العربية ، مثل كلمات "بجاد ، ونسيب ، ولم أنض ، وصعاد ، وجآذر، والمزن ، وثماد ، ويرسف ، وعذيرى ، قتاد ، ومذرويه " وغيرها ، ولعل اهتمام الشاعر بالتراث وعشقه له كان دافعاً لكثير من الألفاظ الصعبة التي وردت في قصيدته ، والحق أن قارئ القصيدة لا يستطع تنحية قواميس اللغة جانباً أثناء قراءة كثير من ألفاظها للوقوف على معنى بعض أبياتها .

كما أن قارئ القصيدة يلحظ أن الشيخ "محمد الخضر حسين" كان يختار بعض الألفاظ ويعنيها وإن جاءت خلاف ما يتوقعه السامع ، ففي قوله :

رعى الله الأديب يروم معنى فيسعده البيان بما أرادا

فلا شك أن أي متلقي كان يظن أن الشاعر سيعبِّرُ بالفعل "يسعفه" وربما كانت هى الكلمة التي خطرت بباله ، لكن سرعان ما أسعده البيان وأمدته القريحة بما

قال والحق أنها كلمة أكثر تعبيراً وتصويراً لإحساس الشاعر لحظة النطق بالعبارة التي يطوف فكره في فضاءات فسيحة ويسبح خياله في عوالم شتى كي يتم له التعبير بها ، ومن ذلك أيضًا اختيار الشاعر للتعبير بالفعل "ينزع" في قوله : " وينزع بي إلى الآداب " ، دون غيره من مثل "يأخذنى" ، و"يذهب بي" أو غيره تصويراً لقوة انجذابه للأدب ، علَّه يجد فيه ضالته ، ويطفئ لهيب وجده ، فيبدو أنَّ عشق اللغة والأدب ضارب بجذوره في عمق ذات الشاعر وسويداء قلبه.

ج – الخيال والصورة الشعرية :

تعد الصورة الشعرية إحدى أدوات الشيخ "محمد الخضر حسين" في هذه القصيدة التي جعلنا فيها أمام مجموعة من الصور الاستعارية والكنائية التي تمنح أفكاره صورة من الحركة والحيوية والتجسيد ومن ذلك ما جاء في مطلعها قوله:

بنـــات الفكـــر آبـــدة ولـــولا عنـــان القـــول لـــم تســـلس قيـــادا

حيث نرى للفكر بنات . ثم نراها وكأنها خيول عنيدة سابحة في فضاءات متسعة لا يردها إلى حظيرة الذات سوى اللغة الحية .

ومن هذه الصور أيضًا تلك التي يصر الشاعر فيها على نقل أبصارنا من مشهد إلى مشهد مقابل ليؤكد فكرته عبر هذه الصور المتقابلة بدلا من طرحها في أسلوب إنشائي مباشر ، ومنها ما جاء في قوله :

أداروا مـــن سلاســـتها رحيقـــاً وهـــزُّوا مـــن جزالتهـــا صـــعادا

فهو يصور الفصحى في حالين ، حال السهولة و كأن أهلها يشربونها رحيقاً ، وحال القوة والصعوبة وكأن أهلها يتخذونها أدوات للحروب ، كما بدا حرص الشاعر على الصورة التشخيصية التي تبعث الحياة في المعنويات وذلك في قوله عن اللغة أيضاً :

تصـــيد بســـحر منطقهـــا قلوبـــاً تحـــــاذر كالجـــــآذر أن تُصـــــادا

حيث جسد صورة اللغة ، فكأننا نراها ونرى فعلها ، وغير خفي ما أضافه التشبيه هنا من العودة بنا إلى البيئة العربية القديمة وطبيعتها الساحرة ، وهو تشبيه يظهر قدرة اللغة العربية وما تملكه من سحر لا تقاومه الأسماع والقلوب.

والحق أن صور الشاعر وإن كانت جزئية إلا أنه يستطيع أن يصل الصورة بأخرى في البيت الواحد فلا يدعنا أمام مشهد جامد لا يتغير ، يقول عن اللغة العربية :

سرت كالمزن يحيى كل أرض ويبهجها وهاداً أو نجادا

فالشاعر لا يكتفي بتشبيه اللغة العربية بالسحب الممطرة ، وإنما يرينا هذه السحب وهى تمطر الأرض العالية والمنخفضة فتبهجها وتحيي مواتها .

ويعد هذا تأكيدًا على اتساع اللغة وعموم فضلها ، وقد بدا هنا واضحاً ما يفيده التصوير من إشعار المتلقي بالدلالات التي يريد الشاعر أن يبعثها في أعماقه .

د- موسيقا القصيدة وبنيتها الإيقاعية :

جاءت القصيدة على بحر " الوافر " التام بماله من هدوء وامتداد يتناسب مع حالة الشاعر ولغة الحكمة والشكوى والألم لما أصاب اللغة الفصحى من محاولة ازدرائها وتقديم العامية عليها ، وقد اختار الشاعر حرف الدال رويًّا غير أن الدور الإيقاعي الأهم كان لحرف المد بعد الرويّ لإسهامه في تشكيل الدلالة ، ولننظر في ذلك قوله :

عُزَيْرِي من زمانٍ ظل يجني على الفصحى ليرهقها فسادا
حثا في روضها الزاهى قتاماً وأنبت بين أزهرها قتادا
ولولا أن هذا الذكر يتلى لرد بياض غرتها سوادا

فالامتداد الزمانى لألف المد أمكن للشاعر استغلاله هنا في إبطاء حركة الإيقاع بما يتلاءم مع مراد الشاعر، ولا شك أن هذه النبرة هي الأكثر دلالة على شكواه من زمان دُعى فيه للعامية وأصيبت اللغةُ فيه بالقتام والسواد .

ومن أهم الأنماط الصوتية الموسيقية في القصيدة ما أحدثته المحسنات البلاغية من طباق وجناس مثل كلمتي " وهاداً " ، و" نجاداً " في قوله :

سرت كالمزن يحيى كل أرض ويبهجها وهاداً أو نجاداً

وكلمتي " قتاداً ، وقتاماً " في قوله :

حثا فى روضها الزاهى قتاماً وأنبت بين أزهرها قتاداً

أما أكثر الظواهر الموسيقية لدى الشاعر في هذه القصيدة فهو ما أحدثه " رد الأعجاز على الصدور " من توقيع صوتي وموسيقى ، حيث موافقة آخر كلمة في البيت لكلمة في شطره الأول ، وقد تكرر ذلك ثلاث مرات في القصيدة ، حيث رد كلمة " تصاداً " على " تصيد " في قوله :

تصيد بسحر منطقها قلوباً تحاذر كآلجاذر أن تصادا [١]

ورد كلمة " كسادا " على " كساد " في قوله :

أتاها العلم يرسف فى كساد وخطب العلم أن يلقى كسادا

ورد كلمة " التلادا " على كلمة " تلادا " في قوله :

وهذا مجمع يحيى تلاداً ويبنى طارفاً يحكى التلادا

وغير خفي ما يضيفه " رد الإعجاز على الصدور " من توقيع صوتي وموسيقى لما فيه من معنى التجنيس والمشابهة اللفظية أو التكرار اللفظي ، وربما

١- ولعل هذا البيت كان الأكثر توقيعاً صوتياً وموسيقياً حيث اجتمع فيه " التجنيس "بين كلمتي " تحاذر " ، " وجآذر " و " رد العجز على الصدر " و " التجنيس " معاً في كلمتي " تصيد وتصاداً " .

يذكرنا هذا التكرار ودوره الأكثر توقيعاً صوتياً في القصيدة ، ولعل هذا ما دعانا لتقديم الحديث عنه ظاهرة أسلوبية لدى الشيخ الشاعر .

المبحث الثامن

القصيدة الثامنة

" الشعر ولغة القرآن " للشاعر " محمد مصطفى حمام

" الشعر ولغة القرآن "[١] للشاعر " محمد مصطفى حمام"

١- جارت على لغة القرآن طائفةٌ ... من أهلها ليت هذا الجور ماكانا
٢- عَقُّوا التى علمتهم كل ما عَلِموا ... يا ويح من عقَّ أهليه ومن خانا
٣- يا ويح قوم أتوها من قواعدها ... وخدشوا أسساً منها وأركانا
٣- وبعضهم هجر الفصحى إلى لغة ... سوقية لا أدال الله فصحانا
٤- والنحو والصرف والأسلوب قد برموا ... بها وقد أمعنوا صداً وهجرانا
٥- وسموا العجز تجديداً ومقدرة ... وصوروا المسخ والتشويه إتقانا
٦- هل يسمعُ القولَ منى فتيةٌ جرحوا ... لسانَ عدنان ؟ والهفي لعدنانا !!
٧- لا تحسبوا النثر شعراً واعقِلوا وخُذوا ... بالنصحِ واعتدلوا ذوقاً وأذهانا
٨- ثوبوا إلى الضادِ واجنوا من أزاهرها ... واستروحوا صوراً منها وألوانا
٩- ما أفصح الضاد تبياناً وأعذبها ... جرساً وأفسحها للعلم ميدانا

أولاً : غرض القصيدة :

كان الشاعر" محمد مصطفى حمام " مهموماً بقضايا أمته الإسلامية ومشكلاتها في مختلف الميادين ، وقد وضح من ديوانه أن قضية اللغة العربية من أهم القضايا الثقافية التي كان مهموماً بها ، وقد تناولها في هذه القصيدة التي عبرت عن حزنه الشديد أسفاً لما أصاب الفصحى من تعدد أعدائها وهجران أهلها وتخليهم عنها في وقت هي أحوج ما تكون إلى الدفاع عنها .

١- ديوان حمام – للشاعر محمد مصطفي حمام ص ١٣٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

ثانياً : أفكار النص :

تتلخص فكرة النص فيما ذكرتُ في غرضه غير أن الشاعر استطاع الوصول إلى هذا الغرض ببيان ثلاثة أفكار جزئية أبدى في الأولى أسفه وحزنه لتلك الدعوة الهدامة والهجمة الشرسة على اللغة الفصحى لصالح اللغة العامية بعد أن ذكَّر أهلها بجمال الشعر أحد فنون قولها ، وفي الثانية : أبرز الشاعر جانباً من عقوق أبنائها وتخليهم عنها ، وفي الثالثة : توجه بالنداء لأبناء العروبة يدعوهم إلى الرجوع للفصحى وإعادة سابق عزها ورفعتها .

ثانياً : شرح الأبيات وتحليلها :

قد بدا أن أكثر حزن الشاعر كان لما وجدته هذه الدعوة الهدامة من رواج لدى أبناء الفصحى وأهلها وكان أجدر بهم أن يهبوا لنجدتها ، يقول عن هذه الدعوة :

جارت على لغة القرآن طائفة ... من أهلها ليت هذا الجور ماكانا
عَقُّوا التى علمتهم كل ما علموا ... يا ويح من عقَّ أهليه ومن خانا
يا ويح قوم أتوها من قواعدها ... وخدشوا أُسُسَاً منها وأركانا
وبعضهم هجر الفصحى إلى لغة ... سوقيةٍ لا أدال الله فصحانا

يَعُدُّ الشاعر هذا الهجر وهذا التخلي عن اللغة الفصحى من بعض أهلها جوراً وعقوقاً بل خيانة وجريمة تستحق العقاب ، ثم هو يوضح أنهم يحاولون النيل من اللغة في قواعدها ويجمع بين هؤلاء ومن يحاولون النيل من قواعد الشعر الأصيلة والمتوازنة ، ولا شك أن ضعف أيهما يسهم لزاماً في ضعف الآخر ، كما أنه يصف اللغة العامية بالسوقية ويرى أن انصراف البعض إليها دليل عجزهم عن فهم الفصحى وقواعدها ، يقول :

والنحو والصرف والأسلوب قد برموا ... بها وقد أمعنوا صداً وهجرانا
وسموا العجز تجديداً ومقدرة ... وصوروا المسخ والتشويه إتقانا

هل يسمع القول مني فتية جرحوا لسان عدنان ؟ والهفى لعدنانا !!
لا تحسبوا النثر شعراً واعقلوا وخذوا بالنصح واعتدلوا ذوقاً وأذهانا

فهو يرى أن أعداء الفصحى من أبنائها فى الحقيقة عجزوا عن فهم قواعدها ، وضاق بهم الالتزام بها فراحوا يتشدقون بالدعوة إلى ما يستطيعوه بدعوى التجديد والتغيير ، متمثلين بقول عمرو بن معدكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع [١]

وهم بهذه الدعوة الآثمة شوَّهوا اللغة وطعنوا في أصالتها ، ولعل ذلك ما دعا الشاعر أن يطعن في عقولهم وأذهانهم فراح يناديهم متلهفاً وراجياً سماع ندائه ونصحه بأن يعودوا لرشدهم بعد أن تخلفوا عن فهم اللغة حتى أنهم لا يفرقون بين شعرها ونثرها [٢] .

وفي نهاية قصيدته يؤكد الشاعر دعوته لأبناء اللغة أن يعودوا إليها ويعرفوا لها قدرها ، يقول :

ثوبوا إلى الضاد واجنوا من أزاهرها واستروحوا صوراً منها وألوانا
ما أفصح الضاد تبياناً وأعذبها جرساً وأفسحها للعلم ميدانا

فهي سيدة اللغات بفصاحتها وعذوبتها وإيقاعها وكذلك بعطاياها واتساعها للتعبير عن شتى صنوف العلم ، ومن قبل ذلك كله لشرف انتسابها للقرآن الكريم

١- ذكره ابن عبد ربه في ديوانه ، " ديوان أحمد محمد بن عبد ربه " المتوفى عام ٣٢٦هـ – جَمَعَه وصحح نصوصه د . محمد رضوان الداية – ط دار الفكر – الثالثة ١٤١٤هـ – ٢٠٠٣م – وجاء البيت في " الأغاني " ١٥ / ١٦١ .

١- أما أن يُحمل قول الشاعر " لا تحسبوا النثر شعراً واعقلوا " على أنهم تخلفوا عن فهم اللغة حتى أنهم لا يعرفون الغثَّ من السمين فنربأ بالشاعر أن يقصد هذا المعنى فليس في الشعر وحده يكمن جمال العربية وإبداعها المتجدد ، ففي كثير من صفحات النثر الذي عرفته العربية منذ قرون طويلة ألوان من الجمال الفني تحازي الشعر وربما تفوقه وتنطق بجمال الصياغة وتوهج اللغة وعذوبتها .

حين اختارها الله عز وجل دون غيرها من اللغات لتكون لغته الناطقة بمعانيه الكريمة ومقاصده الشريفة .

رابعاً : الدراسة الفنية :

أ : ظواهر الأسلوب :

أكثر ما يطفوا علي سطح أسلوب الشاعر استخدامه المفرط للأساليب الإنشائية التي يبدو أنها تأخذ من قلبه ، فالقصيدة لم يغادرها الاستفهام إلا إلى الأمر ، ولا الأمر إلا إلى النهي ، ولا النهي إلا إلى النداء أو الدعاء أو التمني ، أو غيرها من أساليب الإنشاء التي لم تغادر القصيدة إلا في ثلاثة أبيات مما يعدّ سمة ظاهرة في أسلوبه الفني .

ومن ذلك أيضاً جمعه لأساليب الاستفهام والأمر والنهي في قوله :

هل يسمع القول مني فتية جرحوا لسان عدنان ؟ والهفي لعدنانا !!

لا تحسبوا النثر شعراً واعقلوا وخذوا بالنصح واعتدلوا ذوقاً وأذهانا

وغير خفية قدرة الأساليب الإنشائية على استمالة المتلقي والمشاركة في تشكيل البعد النفسي بخلاف القضاء على الرتابة والنمطية .

ب : الألفاظ والصور التعبيرية :

بعد أن وضح أن أسلوب الإنشاء أخذ من قلب "محمد مصطفي حمام " في ألفاظ فعل الأمر كان طبعياً أن يتبع ذلك معجمه اللفظي من استخدامه ألفاظ فعل الأمر ، وأدوات النداء ، والاستفهام ، والتمني ، وغيرها مما يعد سمة تعبيرية في القصيدة :

كما يأخذ النظر شغف الشاعر باستخدام ألقاب وكنى عديدة للغة العربية ، فهو يناديها بـ "الضاد" ، "ولغة القرآن" و "لسان عدنان" و "أم اللغات " وقد بدا ما في

هذه الألقاب من دلالة على تكريم اللغة وإعزازها وحُقَّ للشاعر فليس أعز وأكرم من لغة القرآن حين يكون التكريم .

ومما يبدو واضحاً في ألفاظ القصيدة أيضاً تكرار الشاعر لتركيب " يا ويح" وما في ذلك من المبالغة في إظهار الحزن والحسرة وربما الترحم على حال اللغة العربية وأبنائها في ظل دعوة أعدائها لتقديم العامية عليها .

ج : الخيال والصورة الشعرية :

لعل هذه القصيدة هي الفريدة بين القصائد العشر التي يمكن أن نقول فيها أن الشاعر لم يختر طريق التصوير الفني للتعبير عن معانيها، وعلى ذلك يندر أن تجد علاقة حسية أو مجازية بين طرفين في قصيدته ، ومن هذا القليل النادر تلك الصورة التي بدأ بها الشاعر قصيدته في قوله :

هل يسمع القول مني فتية جرحوا لسان عدنان ؟ والهفي لعدنانا !!

فهو يشخص اللغة بما أصابها من الدعوة الآثمة لساناً مجروحاً ويتلهف حزناً عليه ، وهي صورة لم تكن لتدور في خلد المتلقي استطاع الشاعر أن يجعلها أداة لبيان المعنى واتساع المدلول إضافة لما تحدثه الصورة من متعة أدبية وأثر في النفس جميل .

د : البنية الإيقاعية والموسيقا:

كانت الموسيقا إحدى الوسائل المرهفة التي استخدمها الشاعر في هذه القصيدة للتعبير عن ظلال المعاني وألوانها ، وقد بدا ذلك من مطلعها الذي جاء مرصعاً باتفاق شطرية قافية ليوحي بموسيقية مرهفة .

والقصيدة جاءت على بحر البسيط ولعله أسهم في التعبير عن حالة التوتر والألم الذي يعيشه الشاعر إثر حزنه لما ألمَّ باللغة العربية .

وربما أسهمت حركة حرف الروي في قافية النون المفتوحة ، وما تلاها من حرف المد في تخفيف هذا التوتر والصراع في نفس الشاعر لما أدياه من هدوء الإيقاع .

أما الظواهر الموسيقية في القصيدة فتتمثل فيما أحدثه كلَّاً من "التجنيس ورد الأعجاز على الصدور "من إيقاع ، وقد تكرر الأول منهما كثيراً في القصيدة ، ومنه ما جاء في قوله :

عَقُّوا التي علمتهم كل ما علموا يا ويح من عقَّ أهليه ومن خانا

أما رد العجز على الصدر ، فقد ورد في قوله :

وبعضهم هجر الفصحى إلى لغة سوقية لا أدال الله فصحانا

والحق أنهما أعطيا البيتين وربما القصيدة كلها نمطاً صوتياً وإيقاعاً خاصاً مثَّل ضرباً من ضروب الموسيقا الشعرية .

المبحث التاسع

القصيدة التاسعة

" لغة الضاد " للشاعر "د. عثمان قدري مكانسي

" لغة الضاد "[١] للشاعر "د. عثمان قدري مكانسي [٢]

١- قل لي بربك هل صادفت بستاناً ... يحوي من الأُكُل الفياض ألوانا ؟
٢- فيه الفواكه مما طاب مغرسُها ... أو الثمار تُدلي فيه أفنانا
٣- أو الينابيع جل الله باجسُها ... كدفقة الروح تزجي الخير ريّانا
٤- يهوى النسيم ظلال الأنس مائسة ... فيه يراقص غصن الحور هيماناً
٥- أو العصافير سكرى تنتشي طرباً ... بعطر أنسامها ينساح نشوانا
٦- تبارك الله هذا الفضل ألهمني ... آيات درٍّ، بها قد جدت فنانا
٧- أسبح الله ، يحدوني لحضرته ... قلبٌ تفجرحبا ، فاض تحنانا
٨- قد شاره من لسان الضاد مفخرةً ... لمَّا تشرف بالتنزيل قُرآنا
٩- لسانُنا قد سرى سحراً ، يؤلقه ... معنى بديع ولفظ دق عرفاناً
١٠- أما المعاني فبحرٌ زاخرٌعببٌ ... واللفظُ فيه استوى قيعاً وشُطآنا
١١- نسعى إليه نهالاً من مراشفه ... ونصطفي من جميل الدر حصباناً
١٢- إن رمتَ معنىً جليلاً نلت أوفره ... أو شمت لحناً لطيفاً حزت ألحانا
١٣- إن كانت الحلى قد صيغت بعسجدها ... فهّيجتْ بوميض المال دنيانا
١٤- فإن أنوار آي الضاد من شرف ... قد تيَّمَتْ قبل أهل العينِ عميانا
١٥- فهْى العرائس لا تبلى على قِدَمِ ... في كل آن ترى من حسنها شانا
١٦- تهديك كلَّ جديد من ولائدها ... كفلقة البدر ، بل فاقته إحسانا

١- شبكة المعلومات الدولية " موقع أدباء الشام " "ww.adabsham.net"

٢- د / عثمان قدري مكانسي : أديب سوري معاصر ، ولد في حلب بجوار مسجدها الكبير لأم شاعرة ، ودرس في جامعة حلب وتخرج من كلية "اللغات" ، ونال درجة الماجستير والدكتوراه في الأدب العثماني ، وشارك في حرب أكتوبر في الجيش السوري برتبة ملازم ، له ديوان شعر وأخر تحت الطبع وأكثر من خمسة وعشرين مقالة نشرت في موقع أدباء الشام ، ويعمل مدرساً للغة العربية في وزارة التربية والتعليم ونقل معاراً إلي عدة دول منها الجزائر والإمارات والأردن وأمريكا [المرجع السابق] .

١٧- وصوغُها لصحيح الفكر يكسبه فــوق الوضــوحِ بيانــاً جــلّ تبيانــا
١٨- والشعرُ أغرودةُ اللهفانِ يرسلُها نفثــاً يحــرك فــي الأعمــاقِ أشــجانا
١٩- يلقيه نبضاً يهيم السامعون به ويلهــب القــوم إحساســاً ووجــدانا
٢٠- يثير فيهم غراس الخير يانعة ويــدفع القــوم للميــدان شــجعانا
٢١- والنثر نسجٌ حوى من سندسٍ ألقاً فيــه الســناء ، ومــن اســتبرق زانــا
٢٢- يعلو به من سَمَتْ في قلبه فِكَرٌ جُلــى تســاوق فــي الأثمــان عِقيانــا
٢٣- لله دَرُّ لســان الضــاد منزلــة فيهــا الهــدى والنــدى والعلــم مــا كانــا

أولاً : غرض القصيدة ومناسبتها :

نظمت القصيدة في مدح اللغة العربية الأصيلة وبيان فضلها وحاجة الأمة لها ، وأما عن مناسبتها فقد سئل صاحبها عن ذلك في منتدى أدباء الشام فقال " كثيراً ما أتألم حين أرى مذيعاً أو محاضراً أو خطيباً أ و واعظاً يلحن ويكثر خطؤه ، ويزداد ألمي حين أرى معلمي اللغة العربية – وهم حملتها إلى الناس – يحتاجون إلى دروس في العربية ، نحواً وبلاغة وأدباً فأعلم أن تلاميذهم يكونون أضعف منهم ، ولعلي في لحظة معاناة أمسكت بالقلم أُعبر عن هذا الشعور الحزين ، فوُلِدت قصيدة " لغة الضاد" [١] .

ثانياً :أفكار النص :

جاءت القصيدة في ثلاث وعشرين بيتاً ، صوَّر الشاعر في نصفها الأول اللغة العربية بستاناً يجود بالفواكه والثمار والينابيع المتدفقة ، والعصافير التي تراقص الأغصان ، ثم انتقل من وصف هذا البستان إلى وصف اللغة الفصحى ومعانيها .

وفي النصف الثاني من القصيدة يصف الشاعر مفاخر اللغة في مقدمتها ما شرُفَتْ به من نزول القرآن بها ، واتساعها لكل معاني الفكر ، ووفائها لفنون القول من شعر ونثر .

١- المرجع السابق ،والموقع ذاته .

ثالثاً : الشرح والتحليل :

استهل الشاعر قصيدته ببداية كفيلة ليست فقط بتنبيه المتلقي ، وإنما أيضاً لعلها تدفعه لمشاركة الشاعر فكرته ، يقول :

قل لي بربك هل صادفت بستاناً يحوي من الأُكُل الفيَّاض ألواناً
فيه الفواكه مما طاب مغرسُها أو الثمارُ تدلى فيه أفنانا
أو الينابيعُ جلَّ الله باجسُها كدفقة الروح تزجي الخير ريّانا
يهوى النسيم ظلال الأنس مائسة فيه يراقص غصن الحور هيماناً
أو العصافير سكرى تنثني طَرَباً بعطر أنسامها ينساح نشوانا

بأسلوب إنشائى وصيغة الأمر يحاول الشاعر استمالة المتلقى وتنبيهه في مطلع قصيدته ، ثم هو يربط وصفه للغة العربية وما فيها من أسرار تبهر العقول بالطبيعة وما فيها من سحر يحرك الخيال ، وحق للشاعر هذه الملائمة فالطبيعة هى "إلف الشاعر الحميم ، وتوءم روحه ، ومرتع فكره ، ومتاع بصره ، ومهبط وحيه ، ومعهد متاعاته وذكرياته ، إلى ظلالها يسكن وبين محاسنها يقيم [١] .

ولعل الشاعر حين ربط بين الطبيعة واللغة العربية في هذه الأبيات أراد التأكيد على هذه الدلالات ، ففى لغة الضاد ما في الطبيعة من حياة ومتعة وجمال ، وهو يعشق هذه اللغة ويتعلق بها ويقطف من ثمارها ، ويتنسم عبيرها ويهيم في أجوائها الساحرة ، كما يهيم بالطبيعة الغنّاء ونسيمها العليل ، وطيورها الرائعة .

ويستطرد الشاعر يصف ألفاظ اللغة العربية ومعانيها وفضلها ، يقول :

تبارك الله هذا الفضل ألهمني آيات درٍّ، بها قد جدت فنانا
أسبحُ الله ، يحدوني لحضرته قلبٌ تفجر حبَّاً ، فاض تحنانا
قد شاره من لسان الضاد مفخرةً لما تشرف بالتنزيل قرآنا

١- في الأدب المقارن – فخري أبو السعود ص ٧٢ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م .

لسـانُنا قـد سـرى سـحراً ، يؤلقـه معنـى بـديعٌ ولفـظ دق عرفانـاً
أمـا المعـاني فبحـرٌ زاخـرٌ عبـبٌ واللفـظ فيـه اسـتوى قيعـاً وشـطآنا
نسـعى إليـه نهـالاً مـن مراشـفه ونصـطفي مـن جميـل الـدر حصـباناً
إن رمـتَ معنـى جلـيلاً نلـت أوفـره أو شـمت لحنـاً لطيفـاً حـزت ألحانـا

يعلل الشاعر في هذه الأبيات وصفه فضل اللغة العربية ، فهى التي تلهمه بدائع القول لاسيما هذا النظم الذي يسطره ، ولعل ذلك ما حداه أن يشكر الله عز وجل ويسبحه بقلب نابض يفيض بالحب والحنان .. رطب بما وقر فيه من لغة القرآن .

هذا هو قلب الشاعر أما لسانه فهو يضيء لمعاناً كالبرق لما سرى فيه من سحر اللغة العربية برقة ألفاظها وبديع معانيها .

ويبدو أن الشاعر لم يكتف بهذا الوصف لألفاظ اللغة ومعانيها فراح يُفَصِّلُ وصفه بتشبيه المعاني التي تحويها لغة الضاد بالبحر الزاخر الفياض المليئ بالكنوز ، والألفاظ في هذا البحر هى القيع والشطآن التي يتمتع الإنسان بجمالها ، ثم يؤكد الشاعر في الأبيات أن هذا البحر الزاخر ننهل من مراشفه وهو يمنحنا مع عذوبته الدر كما تمنحنا اللغة الألفاظ التي ننسجها فنوناً للقول وألحاناً من الأنغام وتعبيراً عن بنات الفكر والخيال .

وبعد وصفه ألفاظ اللغة ومعانيها انتقل الشاعر إلى وصف مبعث شرفها وفخرها نسبتها إلى القرآن الكريم يقول :

إن كانت الحلى قد صيغت بعسجدها فهّيجـتْ بـوميض المـال دنيانـا
فـإن أنـوار آي الضـاد مـن شـرف قـد تيمـت قبـل أهـل العـين عميانـا
فهْـى العـرائس لا تبلـى علـى قِـدَم فـي كـل آن تـرى مـن حسـنها شـان
تهـديك كـلَّ جديـد مـن ولائـدها كفلقـة البـدر ، بـل فاقتـه إحسـانا

وصــوغُها لصــحيح الفكــر يكســبه فــوق الوضــوح بيانــاً جــلّ تبيانــا

يوضح الشاعر أنه إذا كان الحليُّ قد ضرب من الذهب اللامع المتلألئ فهاج لـه بريـق المـال وعيـون أصـحابه ، فـإذا أنـوار اللغـة وأسرارها قد بُهر بهـا الجميـع أصحاب العيون وفاقديها ، كيف لا وقد نزلت بها آيات القرآن الكريم وما فيها من فصـاحة وطـلاوة وجمـال تجعل الجميـع يهيمـون بهـا عشقاً وإيمانـاً، فكـأن الأنـوار تتجلـى فـي الأصـوات المسموعة وكـأن الأنغـام التـى تتـردد باللغـة العربيـة وتـلاوة القرآن أنوار تغزو قلوب سامعيها والناظرين.

والحق أن هذه الأبيات وفت بكثير من المعاني أضافها إليها تشبيه الشاعر لألفاظ اللغـة بـالعرائس التـي لا تبلـى وهـو تشبيه وإن لـم يكـن مبتكراً أو جديداً إلا أنـه إضـافة جميلة تؤكد صلاحية ألفاظ اللغة العربية وآي القرآن وعظم شأنها في كل أوان .

وفي نهاية قصيدته يتحدث الشاعر عن إبداع ما تهديه هذه اللغة الجليلة من فنون القول ، شعراً ونثراً ، يقول :

والشــعر أغــرودة اللهفــان يرســلها نفثــاً يحــرك فــي الأعمــاق أشــجانا

يلقيــه نبضــاً يهــيم الســامعون بــه ويلهــب القــوم إحساســاً ووجــدانا

يثيــر فــيهم غــراس الخيــر يانعــة ويــدفع القــوم للميــدان شــجعانا

والنثـر نسـجٌ حـوى مـن سـندس ألقـاً فيــه الســناء ، ومــن اســتبرق زانــا

يعلـو بـه مَـنْ سَـمَتْ فـي قلبـه فِكَـرٌ جُلـى تسـاوق فـي الأثمـان عِقيانـا

لله دَرُّ لســـان الضـــاد منزلـــة فيهـا الهـدى والنـدى والعلـم مـا كانـا

وحق للشاعر ، فالشعر بوزنه وقوافيه ووقعة الموسيقي على الأسماع ومعانيه الهادفة يحرك الأشجان ويثير العواطف حيث تتفاعل معه النفس ويكون لـه عليها بالغ الأثر ، فهى كما تطرب له قد يدفعها إلى ميدان القتال .

وكذلك النثر وقدرته على التعبير عن المعاني وبنات الفكر لاسيما المعاني الجليلة التي لا تقدر بأثمان ، وغير خفية قيمة اللغة في التعبير ، ولا شك أن هذه القيمة تسمو وتعلو حين يكون الكلام شعراً أو نثراً .

رابعاً : دراسة فنية للقصيدة :

(أ) ظواهر أسلوب الشاعر :

يمكن القول أن هذه القصيدة للدكتور عثمان قدري مكانسي خضعت لبنية أسلوبية جعلت لها قيمة إبداعية قادرة على جذب المتلقي ، وقد تكونت هذه البنية الأسلوبية من عدة ميزات في أسلوب الشاعر غير أن ميزة واحدة بلغت حد الظاهرة هى " التناص" ، ذلك أن كثيراً من أبياتها حين نقرؤه يتبادر إلى الذهن تفاعله مع نص آخر ، وتحكم بوجود علاقة ظاهرة أو خفية بينهما ، ومن ذلك ما جاء في القصيدة قول الشاعر عن آي القرآن الكريم :

فهي العرائس لا تبلى على قدم في كل آن ترى من حسنها شانا

فهو يتناص مع قول "شوقي" في نهج البردة [١] :

آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق والقدم

ولعل "شوقياً" في هذا البيت ومن بعده شاعر "لغة الضاد" قد تأثرا بالبوصيري في قوله عن آيات القرآن الكريم [٢] :

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

وربما ثلاثتهم أخذوا من قول النبي ﷺ عن فضل القرآن : "ولا يخلق على كثرة الرد ..." [٣]

١- نهج البردة لأحمد شوقي – الأعمال الشعرية الكاملة – جـ ١ – ص ١٩٧ – ط دار العودة – بيروت ١٩٨٨م .

٢- ديوان البوصيري شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد ، شرحه وقدم له : أ / أحمد حسين بسج – ص١٧٠ ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى – ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م

٣- جزء من حديث أخرجه الترمزي في الجامع الصحيح " لأبي عيسى من سنن الترمزي – ت – الشيخ إبراهيم عطوة في كتاب فضائل القرآن – باب ما جاء في فضل القرآن – جـ٥ – ص ١٧٢ ، ١٧٣ – ط دار الحديث – القاهرة – دون تاريخ .

وأيضاً من أمثلة التناص ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر في هذه القصيدة قوله :

فـإن أنـوار آي الضـاد مـن شـرف قـد تيمـت قبـل أهـل العـين عميانـا

فإنه يتناص مع قول " بشار بن برد" [١].

يـا قـوم أذنـي لـبعض الحـي عاشـقة والأذن تعشـق قبـل العـين أحيانـا

ومما يجدر ذكره هنا ويؤكد التناص بينهما أن هذه القصيدة للدكتور " عثمان" جاءت على وزن وقافية قصيدة "بشار" ،وغير خفي مايفيده النص الحديث ثراءً ورواءً إثر التفاعل مع نص قديم ، كما أن التناص من أكثر ما يدل على تمكن الشاعر وثقافته .

ب : الألفاظ والصور التعبيرية :

قارئ قصيدة لغة الضاد يلحظ أن ألفاظها سهلة واضحة لا تحتاج في مجملها إلى معجمات لغوية لبيان معانيها ويلحظ أيضاً اتصالها بالطبيعة ومعجمها اللفظي ، فيبدو أن الطبيعة أخذت كثيراً من قلب الشاعر ، حتى رآها بجمالها وعطاياها في جمال وعطايا اللغة العربية ، وعلى ذلك ارتكز الشاعر على المعجم اللفظي للطبيعة في ألفاظ قصيدته وقد وضح ذلك جلياً من بداية القصيدة إلى آخرها حتى أصبح أكثر مفرداتها له علاقة بالطبيعة وفيضها ، من مثل كلمات " بستان – أكل – ألوان – فواكه – غرس – أفنان – ينابيع الخير – ريان – النسيم – الظلال – الغصن – العصافير – سكرى – أنسام – نشوان – سحر – ألق – بحر – قيعان – شطآن – نهالاً – الدر – ألحان – حسن – فلقة بدر – أغرودة – أعماق – أشجان – وجدان – يافعة – سندس – السناء – استبرق – الندى " وهي ألفاظ تتخلل جميع أبيات القصيدة مما يؤكد علاقة المعجم اللفظي

١- " ديوان بشار بن برد " – تقديم وشرح وتكميل أ/ محمد الطاهر بن عاشور ، راجع مخطوطاته ووافق علي ضبطه محمد شوقي أمين – ج٤ / ١٩٤ – ط لجنة التأليف والنشر ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

لدى الشاعر بالمعجم اللفظي للطبيعة ، وقد يتعدى هذا الحكم قصيدة لغة الضاد إلى أسلوب الشاعر في غيرها من القصائد.

ج : الخيال والصورة الشعرية :

إذا علمنا أن الشاعر ربط بين اللغة العربية والطبيعة نعلم اهتمام الشاعر بالتصوير في هذه القصيدة ، فالطبيعة هي التي تشكل الصورة التي جاءت في القصيدة بألوان مختلفة ، وهذا ما تبدية لنا الصور الاستعارية التي اهتم فيها الشاعر بتشخيص رموز الطبيعة مثل قوله :

يهوى النسيم ظلال الأنس مائسة فيه يراقص غصن الحور هيماناً
أو العصافير سكرى تنثني طرباً بعطر أنسامها ينساح نشوانا

فهو يصور لغة الضاد بستاناً فيه النسيم يهوى ويراقص ، والعصافير ، تسكر وتطرب ، وربما لو صبرنا على الشاعر لسلمت علينا الثمار والأغصان، وكلمتنا الطيور والفراشات .

كما بدا تشكيل الطبيعة للصورة أيضاً في الصورة التشبيهيه مثل قوله :

أما المعاني فبحرٌ زاخرٌعببٌ واللفظ فيه استوى قيعاً وشطآنا
نسعى إليه نهالاً من مراشفه ونصطفي من جميل الدر حصباناً

إنه خيال الشاعر وتصويره الذي يجعلنا نرى اللغة بحراً فياضاً عذباً يُلقي على شطآنه الدر ، هكذا يرى الشاعر اللغة العربية ، ومن بديع تصوير الشاعر أيضاً ما جاء في قوله عن آي القرآن :

فهْي العرائس لا تبلى على قِدَمِ في كل آن ترى من حسنها شانا
تهديك كلَّ جديد من ولائدها كفلقة البدر ، بل فاقته إحسانا

فالشاعر يصور آيات القرآن عرائس متألقة ومتجددة ، ثم هو يجلِّي صورة العرائس بالبيت الثاني فيجعل لها ولائد جميلة ليجعلنا وكأننا أمام عرائس حقيقية، وهكذا هو يرى آيات القرآن الكريم ولغته العربية، ويرى أن حسنها يزداد بعظم شأنها وهديها في كل أوان ، وحق للشاعر فليس أعلى وأجلّ من كتاب الله المعجز ولغته الساحرة .

د : البنية الإيقاعية وموسيقا القصيدة :

جاءت القصيدة على بحر "البسيط" ليكون أحد عناصر هدوء الإيقاع بها ، كما أن اختيار الشاعر لحرف النون رويّاً وما فيه من النغم أسهم أيضاً في هدوء الإيقاع ، وربما رمز الشاعر بهذا الإيقاع العذب للغة العربية وعذوبتها .

كما أن حركة حرف الرويّ وما تلاها من حرف المد أدَّيَا دوراً إيقاعياً في تشكيل الدلالة ، فقد أسهم حرف المد أيضاً في هدوء الإيقاع بما يتلائم مع إسهاب الشاعر في وصف مفاخر اللغة وبيان فضلها لاسيما وقد شبَّه الشاعر في قصيدته اللغة العربية وفضلها بالطبيعة وسحرها ولا شك فيما يضيفه هذا من نغم وعذوبة وجمال فوق الجمال .

أما عن الظاهرة الموسيقية في القصيدة فقد اضطلعت بها "المماثلة" في قوله:

إن رمتَ معنىً جليلاً نلت أوفره أو شمت لحناً لطيفاً حزت ألحانا

فالبيت فيه موسيقا جميلة تؤاذر المعنى وتؤكده بما تحقق فيه من مفهوم "المماثلة" وهي " أن يكون ما في إحدى الشطرتين من الألفاظ – أو أكثر ما فيها – مثل ما يقابله من الأخرى" [١] .

فقارئ البيت يلحظ التوازي بين ألفاظ :

إنْ = أو

رمت = شمت

معنىً = لحناً

جليلاً = لطيفاً

نلتَ = حُزتَ

ولا شك أن هذا التوازي أكسب البيت لحناً ونغماً أسهم في جودة موسيقاه الإيقاعية .

١- ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة "للقزويني – شرح وتعليق : د / محمد عبد المنعم خفاجي – ص ٥٥٢ – ط الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٨٩م .

المبحث العاشر

القصيدة العاشرة

"أشرف اللغات " جاك صبري شماس

مقطعة "أشرف اللغات " جاك صبري شماس

١- أنـا لـن أخاطـب بالرطانـةِ يعربـاً أو أســـتعيرَ مترجمـــاً لبيـــاني
٢- أودعتُ فيكِ حشاشتي ومشاعري ولأنـــت أمـــي والـــدي وكيـــاني
٣- وإذا خدشت مسام جلدي في الحمى ســالت دمــاءُ الضــادِ فــي شــرياني
٤- وتــلألأت بالضــاد تشــمخ عــزة وتســيل شــهداً فــي فــم الأزمــان
٥- ما كان حرفك من " فرنسا " يقتدى أو كــان شــعرك مــن بنــي "ريغــان"

أولاً : مناسبتها :

تأتي في إطار إبداعات الشاعر التي أكثرها تنحى منحىً قومياً يحاول من خلاله أن يكشف للمواطن العربي مزاعم وافتراءات الغرب لاسيما وبعض هذه الإبداعات يتم ترجمتها لتضع الغرب أمام حقيقة كيده وتآمره [١] .

ثانياً : فكرة النص :

تتلخص فكرة النص في بيان عشق الشاعر للغة الفصحى وهيامه بها ، وتسجل اعتراضه على محاولات أعدائها النيل منها بدعوى التمدن والتحضر ، وهى في الحقيقة تقليد أعمى للغرب دون النظر إلى ما وراء هذه الدعاوي من محاولات طمس الهوية العربية والإسلامية .

ثالثاً : الشرح والتحليل :

في البيت الأول:

أنـا لـن أخاطـب بالرطانـة يعربـاً أو أســـتعير مترجمـــاً لبيـــاني

٢- ينظر : المرجع السابق .

بدا أن الشاعر أراد التعريض بالذين يدعون إلى الشعر الغامض ويكتبونه بهدف أن يجد المتلقي صعوبة في فهمه وعجزاً عن معرفة معناه ، وهم يدعون العمق وسمو المعاني ، ويعد شاعرنا ذلك رطانة هو أبعد الناس عنها ، وغير خفي ما أفاده هنا تقديم المسند إليه من تأكيد ذلك المعنى المراد لدى الشاعر .

ويبدو أن حب الشاعر للغته وعشقه لها ملك عليه لبَّهُ وروحه فراح يقول :

أودعتُ فيكِ حشاشتي ومشاعري ولأنتِ أمي والدي وكياني

وإذا خدشت مسام جلدي في الحمى سالت دماء الضاد في شرياني

وتلألأت بالضاد تشمخ عزة وتسيل شهداً في فم الأزمان

تملك اللغة على الشاعر حياته ودنياه ، فهو يراها أمه وأباه ، ويراها روحه ونفسه التي بين جوانحه ، بل هى دمه الذي يجري في عروقه .

وفي هذه الأبيات " التفات " من المخاطب " أودعت فيك " إلى الغيبة " لغة حباها الله " ولعل " الالتفات " هنا يفيد تحول الشاعر من الحديث الذاتي عن عشقه للغة إلى حديث موجه للآخرين ، حديث عن عظمتها وسر تفوقها على اللغات الأخرى ، فهى لغة عزيزة شامخة تفوح عبيراً وتزهو ضياء وتقطر حلاوة بحيث يدرك الإنسان جمالها بكل الحواس وعبر كل الأزمان .

ومن الحديث عن اللغة وخطابها ينتقل الشاعر إلى خطاب أهلها محذراً ومنبهاً وداعياً للحفاظ عليها يقول :

ما كان حرفك من " فرنسا " يقتدى أو كان شعرك من بني "ريغان "

هذا هو الهاجس الذي دفع الشاعر لكتابة النص ، إنه يرى أبناء العربية يسيرون خلف الغرب مقلدين ، يشوهون اللغة ويحطون من مكانتها ، ولكن هيهات ! فقد حبى الله اللغة العربية حرفاً أصيلاً غرسه في وجدان أبنائها حين نسبه للقرآن الكريم ، وبه صارت العربية خير لغات الدنيا مكانة وأرفعها قدراً.

رابعاً : دراسة فنية للأبيات :

أ : ظواهر الأسلوب :

على الجملة أسلوب الشاعر في القصيدة تركيب فني متكامل في عناصر الفكر والشعور والذوق ، ويعد " الالتفات " هو الميزة الأسلوبية التي كان لها القدرة على تكثيف مستويات بث الجمال في القصيدة ومن ثم عدت ظاهرة .

وهكذا حتى أنهى الشاعر نصه متنقلاً بين صيغتي الخطاب والغيبة ، وقد تم له ما أراد ، ففي خطابه للغة أو لأهلها تتجسد الصورة فيشعر المتلقي بحضور المخاطب ، وحين يلتفت الشاعر للحديث عن اللغة أو أهلها بطريقة الغيبة يجسد الالتفات تحول الشاعر من الحديث عن عشق اللغة إلى الحديث الموجه إلى الآخرين عن عظمتها وتفردها بين اللغات ، وذلك إضافة لما يفيده الالتفات من تنوع الإيقاع وغناه .

ب : الألفاظ والصور التعبيرية :

ألفاظ القصيدة سهلة واضحة بحيث لا تعوذ متلقيها إلى كتب المعجمات اللغوية ، كما أن معجمها اللفظي يتناسب مع غرضها ، ويضم ألفاظ عشق اللغة والهيام بها ، وتنبيه أهلها لمعرفة قيمتها وشرف نسبها .

غير أن الشاعر أورد في القصيدة عدة ألفاظ عناها لتأدية بعض المعاني التي قد لا يؤديها غيرها ، ومن هذه الألفاظ " يعرب " في قوله :

أنا لن أخاطب بالرطانة يعرباً أو أستعير مترجماً لبياني

فاللفظة توحي بالأصل القديم للغة ، فالشاعر يرفض الرطانة والغموض ، ويعشق البيان والسلاسة والوضوح وهي سمات اللغة العربية ، وقد بدا أن المقصود " بني يعرب " لكن الشاعر عبر فقط بلفظة " يعرب " ليوحي بأن كلمات الشاعر لا توجه لكل إنسان ، وإنما يوجهها لمن يتمكن من اللغة ويتذوق حلاوتها ، فهى – رغم بيانها – لا تكون إلا لمن هم امتداد لجد العرب الأول ، وليس لمن ضعفت ملكتهم وشاب اللحن لسانهم .

وفي البيت نفسه يعبر الشاعر بلفظه " الرطانة " وما توحي به من تهكم على أصحاب الدعوة الهدامة ضد الفصحي بسبب دعوتهم للعامية والعجمة .

ج : الخيال والصورة الشعرية :

اهتم الشاعر بالتصوير أداة من أدوات بلوغ الدلالة في نصه ، ولعل أكثر ما يدل لذلك قوله في وصف اللغة العربية :

وتلألأت بالضاد تشمخ عزة وتسيل شهداً في فم الأزمان

في البيت قدم الشاعر صورتين بيانيتين تتعلق كل منها بحاسة من الحواس ، فقوله " وتلألأت الضاد " تتعلق بحاسة النظر ، وقوله " تسيل شهداً في فم الأزمان " تتعلق بحاسة التذوق ، فاللغة العربية رغم أنها مسموعة وتتعلق بحاسة السمع يراها الشاعر لغة ساحرة يمكن للإنسان أن يعيش معها ويدركها بجميع حواسه ، فهي تمتع عيونه بضياها وحروفها المتلألئة ، وتمتع ذوقه بطعم كلماتها التي تقطر عسلاً سائغاً لشرابه .

د : البنية الإيقاعية والموسيقى :

اختار الشاعر لقصيدته بحر الكامل التام ، وهو " وزن متسرع بالموسيقا ويتفق مع الجوانب العاطفية المحتومة ، ويجمع بين الفخامة والرقة ... " [١] .

وربما كان بحر الكامل هو الوزن الأمثل لغرض القصيدة التي تحمل تيارات من عشق الشاعر وحنينه للغة العربية ، وكذلك قافيتها بالنون المكسورة التي تمنحنا ذلك الصوت الرنان الذي تتجاوب اهتزازاته مع مشاعر حنين الشاعر وعشقة للغته ، ولا شك أن هذه الصفات لها صلة وثيقة بالمعنى الشعري .

١- " دراسات في النص الشعري " د / عبده بدوي – ص ٥٦ ط – دار الرفاعي – الرياض – ١٩٨٤م .

المبحث الحادى عشر

الموازنة

موازنة موضوعية فنية بين القصائد العشر

موازنة موضوعية فنية بين القصائد العشر

فُطر الناس جميعاً على حب المفاضلة بين الأشياء المتقاربة ، لاسيما تلك التي ترجع إلى أصل واحد ، ومن ذلك المفاضلة بين الآثار الأدبية ، وهى فطرة سليمة نشأت من لدن ظهور الأدب العربي شعراً ونثراً وتبارى الأدباء في إبداعه .

وحين تعرضتُ بالدراسة لهذه القصائد العشر وأسلوب ناظميها بدت لي عدة فروق بينها ، وكذلك بين الشعراء ، ومن ذلك ما نجده من أن بعضها المطولات وبعضها عدة أبيات ، وبعض الشعراء يبدو واقعياً وبعضهم يغرق في الخيال ، كما أن أحدهم قد يبدو فى قصيدته حكيماً وآخر يستعذب أسلوب الإنشاء .

وأمام كل هذه المعاني وغيرها تبرز الموازنة ، وتصدر الأحكام غير أن النصفة تقتضي أن نذكر أنَّ هذه الأحكام كثيراً ما تكون غير مطلقة ، والصفحات التالية تضم عدة ملامح في القصائد العشر تشكل الموازنة بينها :

– جاءت القصائد العشر في موضوع واحد ، حيث استطاع كل شاعر أن يركز موضوعة في قضية اللغة ، قوة وضعفاً ، ماضيها وحاضرها ، معاناتها، والدفاع عنها وبيان فضلها ، وكذلك الأفكار الجزئية للنصوص العشر لم تخرج عن هذا الإطار الواحد ، حتى إن "محمود غنيم" حين ركز فكرة قصيدته في تهنئة الشاعر "عزيز أباظة" لم يكن ذلك بمعزل عن الفكرة الرئيسة للنص وإنما لأن عزيز أباظة" كان حاملاً للواء الفصحى وباعثاً لنهضتها بشعره الراقي المتجدد .

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بتحقق عوامل تشكيل الوحدة الموضوعية التي يقول بها النقد الحديث – في القصائد العشر .

كان من الطبعي أن يتبارى شعراء القصائد العشر في التغني بشرف نسبة اللغة العربية للقرآن الكريم ، فهو سبب عزتها ورفعتها وأجمل ما حازت من علو

وسؤدد ، وقد كان ذلك صنيع شعرائنا عدا اثنين من العشر هما : "مصطفى صادق الرافعي " و "هاشم الرفاعي" رغم أن الأول وصف اللغة العربية بالنهر العذب وذكر ما يميزها من تراث وقيمة ، وذكر لها أوصافاً عدة عن قيمتها وأسرارها وكذلك الثاني : ذكر أنها " أخت الضاد " و" عابرة القرون" ، وتحدث عن قيمتها ورفعتها ، إلا أنهما لم يتطرقا فى الوصف إلى شرف نسبها للقرآن الكريم ، ولعل ذودهما عن الفصحى ورد أعدائها يغفر ذلك لهما .

ورغم ما أسلفتُ من الدور الرائد للأزهر الشريف في الدفاع عن اللغة العربية ضد هذه الدعوة الآثمة إلا أن المتتبع للقصائد العشر لا يجد صدى لهذا الدور سوى ما جاء في قصيدة "هاشم الرفاعي" قوله :

والبعض قام مشمراً عن ساعد يرمي بكل عظيمة أنصارها
والأزهر المسكين يجرع ظلمكم وهو الذي قد ضمها فأجارها

والحق أني لا أجد عذراً لتسع شعراء آخرين يتحدثون عن اللغة الفصحى في ظل الدعوة للعامية والعجمة ، ويغفلون دور رجالات الأزهر في الذود عنها ضد هذه الدعوة وعلى مر الأزمان.

– بدت عاطفة الشعراء العشر في قصائدهم قوية جياشة يجمعها حب اللغة العربية ، والألم لما يحيق بها من مكائد وكذلك يجمعها الصدق الفني والنفسي بلا زيف أو تكلف ، غير أن ذلك لا يمنع أن هناك ملامح تميز عاطفة كل منهم.

فقد بدت مثلاً عاطفة الشيخ" محمد الخضر حسين " في قصيدته متفجرة فياضة ، متفاعلة مع الحدث ومتألمة له غير أن ما يميزها بعض التفاؤل الذي بعثه في نفسه علماء المجمع اللغوي دفاعاً عن الفصحى ونصرة لها ، أما "حافظ إبراهيم " فقد بدت عاطفته تذوب شوقاً ووجداناً وحناناً للغة العربية ، وكان أكثر ما يميز ذلك العشق ــ الذي تكاد تنصهر معه نفسه حباً للغته ووفاء لها وإخلاصاً ــ تجسيده الفصحى والحديث بلسانها .

- لشعراء القصائد العشر رؤى جميلة ، ترجمها كل منهم صياغات وتراكيب، وهذا التشكيل الجمالي الخاص هو ما نطلق عليه "الأسلوب" وبدراسة أساليب الشعراء بدا أن ثمة ميزات أسلوبية ألحَّ الشعراء على استخدامها وكانت من الكثرة – في القصائد العشر – ما جعلها تشكل ظواهر لأساليبهم ،وقد رصدت أحد عشر ظاهرة وردت في أساليبهم علي النحو التالي:

١- **الاستفهام** : ويعد أكثر هذ الظواهر ورودًا حيث جاء في أسلوب أربعة من الشعراء العشر هم "حافظ إبراهيم " ، و "خليل مطران" ، و "هاشم الرفاعي "، و"طلعت المغربي" ، وغير خفية فائدة الاستفهام فكثير ما كان يكثف من تجسيد المشهد ، ويعمق الإحساس به مما يجعل المتلقي شريكاً متفاعلاً فى الصورة ، ولاشك أن هذه ميزات للشعراء الأربعة عن غيرهم .

٢- **صور التقابل والمفارقات** : وقد شكلت ظاهرة في أسلوب شاعرين هما: "هاشم الرفاعي" و "خيل مطران" ولم يكن ذلك لمجرد عرض الخطاب الشعري في صورة متقابلة تلفت نظر المتلقي ، وإنما أفادت تكثيف المعنى في إطار يظهر الفارق بين الحالين ويجسد التناقض واتساع الهوة بين المتقابلين .

٣- **الالتفات** : وقد شكل ظاهرة في أسلوب شاعرين هما : "هاشم الرفاعي" و "جاك صبري شماس" ، وبعيداً عما يفيده هذا الالتفات والتنقل بين الضمائر من تنبيه المخاطب، وتنوع صور الإيقاع فإنه جاء يعكس حاله القلق والحيرة الوجدانية للشاعرين إثر ما يحدث للغة الفصحى على يد أبنائها ، وربما تبرز هذه الحالة الوجدانية لدى بقية الشعراء .

٤- **التكرار** : وقد شكل ظاهرة أسلوبية لدى كل من "خليل مطران : والشيخ "محمد الخضر حسين " وقد أحسن الشاعران توظيف الألفاظ المكررة لخدمة الدلالات المعنوية والإيقاعية ، فلم يصبح التكرار عبئاً على نصَّيْهما وإنما زادهما بريقًا ورواء .

٥- **النداء** : وقد جاء ظاهرة أسلوبية لدى "خليل مطران : بما يفيد النداء من بعد مكانة المنادى ورغبة الشاعر في وصول نداءاته التي تجسد رؤيته إلى أبعد آفاق ، وقد تمثل هذه النداءات صرخات صادرة من أعماق الشعراء تعبرعن انفعالاتهم بالقضية .

٦- **استلهام التراث** : وقد شكل ظاهرة في أسلوب الشاعر "محمد الخضر حسين " ولا شك فيما يسهم به استدعاء الشخصية التراثية من قوة الفكرة ووضوحها .

وثمة ظواهر أسلوبية أخرى تفرَّد بها شاعر واحد من العشر مثل "الحكمة" في أسلوب "مصطفى صادق الرافعي " و"التجنيس" في أسلوب " محمود غنيم" ، و "كثرة أسلوب الإنشاء " في أسلوب " محمد مصطفى حمام" ، و "التناص" في أسلوب الدكتور "عثمان مكانسي" ، وليس هناك شك فيما أفادته تلك الظواهر الأسلوبية للنصوص من ثراء ورواء .

- أما الموازنة بين القصائد العشر في الألفاظ وصور التعبير ، فأكثر ما يميزها جميعاً أصالة نسبة المعجم اللفظي لكل منها إلى العربية وما يغلب عليها جميعاً من السهولة والوضوح والمرونة والخلو من التفاصح بالغريب عدا القليل النادر مما أسلفت الإشارة إليه في مكانه .

وفي هذا يجدر القول: إن بعض القصائد العشر يتأبَّى على معجم لفظي واحد مثل قصيدة الشيخ "محمدالخضرحسين " ويرجع ذلك إلى طولها وتعدد أفكارها رغم وحدة موضوعها ، والبعض الآخر من هذه القصائد ينحصر في معجم لفظي واحد مثل قصيدة الدكتور "عثمان مكانسي" التي يتصل معجمها اللفظي بالطبيعة التي أخذت من قلب الشاعر فرآها بجمالها وعطاياها في اللغة العربية بجمالها وَنَدَاها ، وعلى ذلك جاءت جل ألفاظ قصيدته لها علاقة بالطبيعة وفيضها ،

وربما كان المعجم اللفظي لهذه القصيدة أكثر المعاجم اللفظية للقصائد العشر تعبيراً عن موضوعها وأفكارها .

وحين صَّور "هاشم الرفاعي" الدعوة ضد الفصحى فتنة تشعل نار الحرب بين محبي اللغة وبين أعدائها ، جاء معجم قصيدته اللغوي بألفاظ توحي بمعاني القوة والقسوة والقتال مناسبة للتعبير عن هذه الحرب المشتعلة بين الطرفين المتنازعين ، ومن البدهي أن المعجم اللفظي للقصيدة حري بإعطاء صورة حقيقية لمعانيها .

ومما يسترعي النظر أيضاً في ألفاظ القصائد العشر إجماع الشعراء على إطلاق ألقاب وكنى على اللغة العربية إعزازاً لها وتقديراً ، وقد كان "محمد مصطفى حمام" أكثر الشعراء العشر شغفاً بذلك ، فجاءت اللغة عنده : "الضاد" ، و "لغة القرآن" ، وهى أيضاً "لسان عدنان" ، و"أم اللغات" وغير ذلك من ألقاب التكريم ، وحق للشعراء فليس أكرم وأعز من فصحانا حين يكون التكريم والإعزاز .

ولا تزال الصورة هى سر العبقرية الشعرية ، وللموازنة بين القصائد العشر فيما ضمت من صور شعرية نجد أن ثمانية منها ارتكز فيها الشعراء على التصوير أداة رئيسية في التعبير عن معانيها على تفاوت بين الشعراء الثمانية بين من يُضَمِّن قصيدته صوراً عديدة ومتنوعة مثل "حافظ إبراهيم " الذي ضمت قصيدته كثيراً من الصور الشعرية – واقعية ومتخيلة – جسدت أفكاره وجعلت المتلقي يعايش معه فكرة جمالية مقنعة ، وبين من تتضمن قصيدته بعض الصور القليلة التي تشكل ظاهرة في أسلوبه مثل : " الرافعي " التي جاءت صوره في القصيدة قليلة وتميل إلى الواقعية ، ولكنها أثبتت ما للشاعر من عين لاقطة قادرة على التصوير .

ومن بين القصائد العشر يَبْرُزُ شاعران لم يختارا طريق التصوير الفني للتعبير عن معانيها ، وهما "محمود غنيم" و "محمد مصطفى حمام" إذ يندر أن تجد علاقة حسية أو مجازية بين طرفين في قصيدتيهما ، وعلى ذلك يمكن القول بفقدان القصيدتين لجانب كبير من عمق التأثير لا يتحقق مع غير التصوير من أدوات البناء الفني .

وثمة ظاهرة تصويرية أخرى – فى الموازنة بين القصائد العشر – يمكن رصدها وهى : تشخيص اللغة العربية بعطائها وحنوها على أبناءها في صورة الأم في رؤية أربعة من الشعراء العشر في مقدمتهم "حافظ إبراهيم" الذي صَّور اللغة أُمَاً لأبنائها الناطقين بها ، واستنطقها شاكية يتحدث بلسانها من بداية القصيدة حتى نهايتها ، ومن ذلك قوله :

ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفاء وأدت بناتي

وكذلك فعل "خليل مطران" ولكن في النصف الأول من قصيدته قبل أن ينتقل للحديث بلسان حاله ، ومما جاء بلسان اللغة قوله يصورها أماً تخاطب أبناءها وبناتها الناطقين بها .

بنيات الحمي أنتن نسلي فإن تنكرنني أتكن نسلي ؟
ويا فتياه إن أخطأَتْنِي مبرتُكُم فإن الثكل ثكلي

أما "الرافعي" فقد صوَّرها أماً ولم يستنطقها وإنما تحدث عن عقوق أبنائها :

أم يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة إلا ما جني النسب

ومنهم من يراها أُمَّاً ولكن ليست لأبنائها الناطقين بها ، وإنما لغيرها من اللغات ، كما في قول "محمد مصطفى حمام" داعياً معشر الشعراء :

ورد عنكم وعن أم اللغات أذى على كثير من الأفهام قد رانا

وقد بدا واضحاً أن الفارق بين من يصور اللغة أماً لأبنائها الناطقين بها وبين من يصورها أماً للغات الأخرى هو الفارق بين التشخيص والتجسيد ، والحق أن

التشخيص يكون أكثر قدرة وإسهاماً في تقديم عرض حي لواقع نفسي خالص حين يبث فيه النبض الإنساني لنجد أنفسنا في رحاب عوالم مدهشة يجمع كائناتها أفق وجداني واحد ، ولا شك أن هذه القدرة لا تتوافر بنفس القدر لدى جميع الشعراء .

– وللموازنة بين القصائد العشر في موسيقاها نجدها جميعاً جاءت على أربعة بحور شعرية هي "البسيط ، والكامل ، والوافر ، والطويل " ويعد "البسيط" أكثرها وروداً حيث نظم عليه أربعة شعراء من العشرة هم : "الرافعي ، ومحمود غنيم ، ومحمد حمام ، والدكتور مكانسي " وحق لهم فهو أكثر بحور الشعر ملائمة للموضوع لاسيَّما حين نعرف أنه "يتفق مع معاني الشجن والتذكر والحنين ، ويعطي حالة من الانسابية والسمو والصفاء ... "[١] وهى مشاعر وجدانية تتفق مع حالة الألم والحزن والشكوى التي يعيشها الشعراء أثر هذه الدعوة الآثمة والهدامة بتقديم العامية والعجمة على فصحانا ، وهذا ما دعا بحر البسيط لأن يشكل ظاهرة بين بحور القصائد العشر.

ويلي البسيط : الكامل والوافر حيث نَظَم على كل منهما شاعران ، ثم الطويل ونظم عليه شاعر واحد ، إضافة لما تحدثه القوافي وحروف الروي من إيقاع ، وكان حرف النون هو الأكثر وروداً في قافية القصائد العشر حيث جاء روياً لثلاث منها ، وقد أسهم بما فيه من النغم فى هدوء الإيقاع ونبرة الحزن والحنين .

أما ظواهر الإيقاع فقد ضمت القصائد العشر ثلاثاً وعشرين ظاهرة ، أكثرها وروداً : "التكرار" حيث جاء نمطاً إيقاعياً في ست قصائد ، تعبيراً عن إلحاح بعض الألفاظ على فكر الشاعر ، فبعد أن يذكرها يعاود ذكرها وكأنها تنبثق في أفق رؤياه مرة أخرى وربما مرات ، وغالباً ما كانت الألفاظ المكررة تنمي الدلالة الإيقاعية وتزيد النص عذوبة ورواء .

١– دراسات في النص الشعري – د / عبده بدوي ص ٧٢ – ط الرفاعي – الرياض ١٩٨٤م .

ويلي التكرار : التجنيس" وقد جاء في خمس قصائد ، بماله من دور موسيقي ينتج عن التقارب الصوتي للألفاظ ، ويليه " رد الأعجاز على الصدور" فقد شكل ظاهرة موسيقية في أربع قصائد ، بما يحدثه توافق لفظتي العروض والضرب من توقيع صوتي رنَّان في بعض أبيات القصيدة ، ويسهم في تشكيل الإيقاع الموسيقي لجميع الأبيات .

وكذلك جاء "التقسيم" ظاهرة إيقاعية في قصيدتين من العشر ، بما تحدثه القوافي الداخلية من إيقاع منغوم يكسب البيت جمالاً يشكل جزءاً من البنية الموسيقية للقصيدة .

كما شكَّل كلٌ من "طباق الترديد " ، و"التتميم" ، و" التصريع " ، و" الالتفات " ، و " المماثلة " ، و " الطباق " ظاهرة موسيقية في قصيدة واحدة لتكون جزءاً من بنيتها الموسيقية التي تسهم في التعبير عن الظل الوجداني لمعاني الشعراء .

الخاتمة

خاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأصلي وأسلم على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه – أما بعد.

فالأديب إنسان موهوب حباه الله طاقة فذة وموهبة نادرة ، واللغة من أهم أدواته الفنية لترجمة الأحاسيس والمشاعر بما لا يستطيعه الآخرون ، فإذا لم يتوافر له فى صباه إتقان اللغة التى يكتب بها ، واكتمال عدته الفنية لم يستطع أن ينتج لنا شعراً أو نثراً ، وربما اقتصر على التقليد والمحاكاة ، وكم من إنسان موهوب قعد به ضعف لغته عن الترقي فى درج الأدب .

وقد بدت اللغة العربية في الشعر موضوعاً جيداً متعدد الإمكانات التعبيرية التي وعاها الشعراء لعوامل دينية وقومية ، وما زال الشعراء يكتبون عن اللغة مما يدل علي تجدد مادة الشعر مع تطور الزمن ، وتعدُّ هذه أول نتيجة انتهت إليها هذه الدراسة التى خلصت إلى عدة نتائج وتوصيات .

أولاً : النتائج :

١- يؤكد هذا البحث أن الدراسات اللغوية في أيّ مجال لا تفقد صفة المعاصرة مهما يوغل الدارس في الماضي البعيد ، فيظل موضوع اللغة الفصحى جديداً ما بقيت العربية أداة نطقنا وتفكيرنا وتاريخ أمتنا ، بل يجدر وضع موضوع اللغة بين القضايا الرئيسة لهذا العصر .

٢- ويؤكد هذا البحث أيضاً أن المستقبل لانصراف الشعراء عن الأغراض المنْصبَّة على الأشخاص والمعاني الذاتية إلى المعاني الجامعة والسامية ، ومنها اللغة العربية وبيان فضلها والزود عنها، فالمعاني الجامعة هى الأكثر تعبيراً عن إحساس الشعراء بقوميتهم وواقع أمتهم.

٣- بدا من دراسة هذه القصائد العشر تمكن الشعور بالقومية العربية والنزعة الدينية من وجدان الشعراء ، وربما يعود ذلك إلى الإحساس بخطر تلك الدعوة الآثمة بتقديم العامية والعجمة على اللغة الفصحى ، وكذلك إحساس الأمة بأهداف الاستعمار البغيض وما ترمي إليه من النَّيْل من ثوابت الأمة وقيمها .

٤- على الرغم من ثقل الأجواء الكئيبة ونبرة الألم والشكوى التي تحاصر اللغة العربية في هذه القصائد العشر إلا أنها انطوت - في أحيان كثيرة - على تفاؤل مشروط بتوجيه الأمة إلى نصرة الفصحى ، وإشباع ما يكمن بداخل الأمة من حث ثوري لا يرضى بتراجع لغة القرآن ، وربما من أسباب هذا التفاؤل أيضًا ما اتسم به شعر القصائد العشر من حس ديني يلزمه الإيمان بحفظ الله تعالى للغة كتابه الكريم .

٥- تؤكد هذه الدراسة على المفارقة الكبرى التي تُبنَى على الأدباء والمبدعين ، فقد أسلفتُ أنهم المعقود عليهم الآمال لنصرة اللغة العربية وعودة أمجادها ، ومن عجب أن يكون من بين أصحاب الدعوة الآثمة ضد الفصحى أيضًا كتاب وأدباء أمثال الروائي " يوسف السباعي "، والكاتب " سلامة موسى " والشاعر "عبد اللطيف البياتي " ، وغيرهم ممن يدعون إلى العامية تارة والعجمة تارة أخرى .

٦- بدا واضحاً من هذه الدراسة أن ما عانته اللغة العربية وستعانيه من دعوات هدامة وآثمة تحاول النيل منها لم تقل في عزمها ، وإنما قد تخرج منها أكثر قوة ومنعة وعزة ورفعة ، ولا شك أن شرف نسبتها للقرآن الكريم هو أكبر مصدر لهذه الثقة التي تجعل الشعراء حين يتحدثون عنها يتطلعون ويستدعون الصور المثلى لمكانتها التي يحلمون بها .

ثانياً : التوصيات :

أ . توصي هذه الدراسة كل أفراد الأمة العربية والإسلامية بوضع الأيدي على الأيدي والقلوب على القلوب لتحقيق الأمل المنشود وهو نهضة اللغة الفصحى وعالميتها لاسيما بعد حالة التردى التى طالت حاضرها

ب . وكذلك توصى هذه الدراسة الأدباء بتمثل الوازع الديني ونزعات الانتماء نحو الدين واللغة العربية والوطن والأمة ، فليس لأديب أن يخفي انتماءه ، فحب الدين واللغة والأمة معان تطفو على سطح البوح وربما دون أن يعنيها الأديب ، ومن ثم يلحظها القارئ في أسلوب أصحابها .

ج . وتوصى هذه الدراسة بتطوير تدريس مواد علوم اللغة العربية وآدابها والعمل على نشرها ، لما للغة عامة من أثر في الكيان الحضاري للأمة، وما للغة العربية خاصة من علاقة عضوية في تكوين وصياغة فكر الأمة العربية وما يتبع ذلك من تطوير ثقافة المعلم وأدواته .

د . كما توصى هذه الدراسة بتكثيف الدراسات الأدبية والنقدية وتسليط الضوء على فنون القول التي تصف الفصحى وتراثها، وتحفظ لها قوتها وعذوبتها .

هـ . أصبح من الواجب على كل مسلم عامة ومنتم للأدب واللغة خاصة أن يتوجه نحو القرآن الكريم ويدعو لحفظه منذ الصغر، فلا شك أن هذا التوجه كفيل بحفظ لسانه وقوة بيانه وانتمائه للغته .

و . وكذلك توصى هذه الدراسة بأن نستأنف العزم وأن نجد السعى في إحياء ما اندثر من لغتنا وإزالة ما طرأ عليها من غبار ، وتبقى الآمال منوطة بهمم أبنائها ومبدعيها أن ينشطوا ويتنبهوا لمكانة اللغة من الأمة ، فلربما كانت اللغة هى الأمة بعينها ، ويكفي الشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق ، حتى لم يبق بيننا جامعة غير هذه اللغة فهلا أبقينا عليها !!.

والله عزَّ وجلَّ أسالُ أن يسْلَمَ هذا البحث على العلات ، وإن لَحِقَتْ به هنات فعذري ناهض وشفيع ، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة في موضوعٍ تُعمقُهُ الأيام بما تضيفُ إليه من جديد .

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباحث

" فهرس المصادر والمراجع "

- القرآن الكريم" كتاب الله عز وجل ".

أولاً : كتب مطبوعة :

١-الأدب العربي الحديث ونصوصه . أ. د / علي علي صبح . ط / مركز كتاب اللغة العربية بالقاهرة .

٢-أعلام الأدب العربي المعاصر . روبرت كامبل . ط/ الشركة المتحدة للتوزيع . بيروت ١٩٨٩ م .

٣-أعلام وأقزام في ميزان الإسلام . د / سيد بن حسين العفاني . ج١ . ط دار ماجد عبري للتوزيع والنشر ٢٠٠٤ م.

٤-الأعلام . خير الدين الزركلي . ط / دار العلم للملايين . الخامسة عشر ٢٠٠٢م .

٥-الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . لجنة بإشراف عبد الستار أحمد الفراج . ط / دار الثقافة بيروت . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠م.

٦-الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي . ط / الشركة العالمية للكتاب ١٩٨٩م .

٧-بناء القصيدة العربية الحديثة . د / علي عشري زايد . ط / مكتبة ابن سينا القاهرة . الرابعة ٢٠٠٢م .

٨-تراجم شعراء الوطنية في مصر . عبد الرحمن الرافعي . ط / دار المعارف . دون تاريخ .

٩-جمال العربية . فاروق شوشة . ط/ مجلة العربي . الأولى ٢٠٠٣م.

١٠- دراسات في المعانى والبديع. د. عبد الفتاح عثمان/ ط مكتبة الشباب/ القاهرة / ١٩٨٣.

١١- سنن الترمزي . ت: الشيخ إبراهيم عطوة . ج٥ . ط / دار الحديث القاهرة . دون تاريخ .

١٢- سير أعلام النبلاء . ط/ مؤسسة رسالة . بيروت . التاسعة ١٩٩٣م.

١٣- الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس. د. وحيد صبحى كبابة / ط منشورات اتحاد الكتاب / دمشق / ١٩٩٩م.
١٤- في أدب الرافعي . د / نعمات أحمد فؤاد . ط / دار الفكر العربي . القاهرة . ط / الثانية دون تاريخ .
١٥- في الأدب المقارن . فخري أبو السعود . ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.
١٦- في شرف العربية . د / إبراهيم السامرائي . ط / كتاب أخبار اليوم . الأولى ١٤١٥هـ .
١٧- قراءة في الشعر وبناء الدلالة . د / شفيع السيد . ط / دارغريب . القاهرة ٢٠٠٧م .
١٨- قضايا الشعر المعاصر. نازك الملائكة/ ط دار العلم للملايين/ بيروت/ دون تاريخ.
١٩- لسان العرب . ابن منظور المصري . ط / دار المعارف . مصر . دون تاريخ .
٢٠- اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة . د / كارم السيد غنيم . ط / مكتبة ابن سينا . مصر ١٩٩٠م .
٢١- لغتنا والحياة . د / عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ " . ط / دار المعارف . مصر . الثانية ١٩٩٨م .
٢٢- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين . ط / دار الفكر العربي . دون تاريخ .
٢٣- معجم المؤلفين . عمر رضا كحالة . ط / دار ابن حزم للطباعة ١٩٩٩م .
٢٤- موسيقا الشعر العربي . د / حسني عبد الجليل . ج١ ط/ الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٩م .
٢٥- هدم اللغة العربية . د / محمد محمد حسين . ط / شبكة المعلومات الدولية .

٢٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان . ط / دار صادر . بيروت ١٩٧٨م .

ثانياً : دواوين ومجموعات شعرية :

٢٧- الأعمال الشعرية الكاملة لأحمد شوقي . ط / دار العودة . بيروت ١٩٨٨ م .

٢٨- الأعمال الكاملة . لمحمود غنيم . ط / دار الغد العربي ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م .

٢٩- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس . شرحه محمد أحمد قاسم . ط / المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى ١٤١٥هـ . ١٩٩٤م .

٣٠- ديوان ابن عبد ربه . جمعه وصحح نصوصه د / محمد رضوان الداية . ط / دار الفكر . الثالثة ١٤١٤هـ .٢٠٠٣م .

٣١- ديوان أبي تمام . شرح الخطيب التبريزي . تحقيق / محمد عبده عزام . ط / دار المعارف . القاهرة . الخامسة دون تاريخ .

٣٢- ديوان بشار بن برد . تقديم وشرح وتكميل / محمد الطاهر بن عاشور . راجَعَ مخطوطاته ووافق على ضبطه : محمد شوقي أمين . ط / لجنة التأليف والنشر ١٣٧٦هـ . ١٩٥٧م .

٣٣- ديوان البوصيري . شرحه وقدم له :أحمد حسين بسج . ط / دار الكتب العلمية . بيروت . الأولى ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م .

٣٤- ديوان حافظ إبراهيم . شرح أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبياري . ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب . الثالثة ١٩٨٧م .

٣٥- ديوان حمام . للشاعر محمد مصطفى حمام . ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ٣٩٤هـ . ١٩٧٤م .

٣٦- ديوان الخليل . لمطران خليل مطران . ط / دار مارون عبود . بيروت ١٩٧٧م .

٣٧- ديوان خواطر الحياة . للعلامة الشيخ / محمد الخضر حسين . ط / شبكة المعلومات الدولية .
٣٨- ديوان "أشتاق أنظر وجهه"/لطلعت المغربي . ط دار المنار بسوهاج .
٣٩- ديوان مصطفى صادق الرافعي . شرحه محمد كامل الرافعي . ط / مكتبة الإيمان بالمنصورة . دون تاريخ .
٤٠- ديوان هاشم الرفاعي (الأعمال الكاملة) . تحقيق ودراسة : عبد الرحمن جامع الرفاعي . ط / مكتبة الإيمان بالمنصورة الأولى ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م .
٤١- شرح المعلقات السبع . للإمام القاضي أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني . ط / مكتبة القاهرة ١٩٧٩م .
٤٢- المختار من شعر خليل مطران . د / محمد عناني . ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

ثالثاً : مواقع شبكة المعلومات الدولية " net " :

. "http:// ar wikioedia. Org / wiki"

. language www.alukah.net/literature

. [www.islameb.net]